جمال شاهين

صديق امي

المكتبة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم



أمي

مات والدها قهرا

وهددت بالموت انتحارا

فحصلت على الطلاق غصبا

هربت قبل بلوغ أختي سنة

لتتزوج صديقها

فكانت هذه الرواية

ع . ح


صديق أمي


الأم شأن كبير للابن والبنت ، كلاهما يراها ملاكا يمشي على الأرض ، ينسى
الابن والبنت أنها إنسان لها حق الحياة ، ولها غرائز الخلق تشتهي
وتختار ، لا يريد لها أن تخطئ ، يريدها أن تبقى ملكا ، لأنه يعتقد أنها عظيما
في نفسه ، جوهرة نفيسة غالية ، فهذه حكاية امرأة عاشت بيننا كأم هاربة من
مسؤولياتها .. وهل تتخلى الأم عن مسؤولياتها ؟ !.. هذه قصة عباس مع أمه
أغلى كيان يدب على
جمال

الحاج عزام

تبدأ القصة مع أصيل يوم الخميس من شهر أيلول عندما كان الحاج عزام محمد الرّشاد يجلس في محله الكبير في ذلك السوق القديم " سوق الليمون المحروق "، فهو سوق معروف ومشهور على مستوى المدينة كلها والقرى حولها .. فهو أول سوق أنشئ في هذه المدينة العربية .. وبجواره جامع المدينة التاريخي .. جامع سيدي محمد صلى الله عليه وسلم .. وتجد في هذه السوق المطعومات كلها والمشروبات كلها .. خضار .. فاكهة .. تسالي .. أدوات طهي كتب .. عطور .. عطارة .. لحوم .. اسماك .. دجاج .. سوق جامع لكل شيء ..وكان متجر الأخوين عزام ومسلم من أكبر وأوسع المتاجر فيه ، وهم ورثوا المحل الكبير عن أبيهم محمد الرّشاد .. ويعمل بين أيديهم في هذا المحل خمسة أفراد .. ولا يكاد المحل يخلو من الزبائن والرواد .. فهناك بضاعة تخرج ، وبضاعة تدخل من باب آخر للمتجر .. وبين سائل عن سلعة ومشترٍ لأخرى .. حبوب .. حمص .. فول .. ترمس .. زيت .. بهار .. قهوة .. عصير .. طحين .. جبنة .. وفي مدخل المتجر طاولة معدة لمحاسبة الزبائن عند الخروج .. وهي طاولة كبيرة وقديمة .. ويجلس على كرسي قربها الحاج عزام يحاسب المشترين ، ويبعد عنه كرسي آخر يجلس عليه شقيقه الأكبر ، شريكه يتابع الشغل والعمال والزبائن .. فهما شركاء منذ وفاة والدهم وورثتهم للمتجر ..وقد عملوا مع أبيهم في هذه التجارة منذ وعوا على الدنيا .. فلهم أكثر من ثلاثين سنة يعملون في هذا المتجر .. فهم ورثوا أعمال البقالة والسمانة عن أبيهم ، كما هو ورثها هو عن أبيه .. فحياتهم البيع والشراء .. ولديهم مصالح أخرى ، وتجارات أخرى . الحاج عزام زاد عمره عن الخمس والأربعين سنة ، وله زوجة ، ولم يوهب إلا ابنة واحدة تخرجت منذ أيام من الجامعة .. وأخوه مسلم يكبره بثلاث سنوات، لاحظ الحاج مسلم ضيق أخيه منذ ساعات الصباح .. واعتقد أن أخاه قد تشاجر مع زوجته ، فلم يحب الحديث في هذا الأمر .. لكنه عند المساء وقد خفت حدة الشغل ، فسأله عن سبب تجهمه ، فقال الرجل ؛

وكأنه كان ينتظر هذا الاستفهام من شقيقه الأكبر "البنت يا أخي "

فانزعج الشقيق الأكبر وهو يعلم عظم تعلق أخيه بابنته الوحيدة وقال : " البنت !! هل هي مريضة ؟ منذ أيام احتفلنا بتخرجها ونجاحها من الجامعة " .

تنهد الحاج عزام وقال بأسى : تمنيت لو لم أسمح لها بالدراسة في الجامعة يا أبا مصطفى .

ـ يبدو أن الأمر خطير يا أبا هدى !

ـ فعلا خطير .. خطير جدا .. لا مجال للحديث هنا

قال : شغلت قلبي .. أين سنتكلم ؟

ـ عندما نذهب بعد قليل لصلاة المغرب.. نمكث بعض الوقت في المسجد ، وسأحدثك بكل شيء .. إنني تعبان يا أبا مصطفى .

والتهى مسلم بمتابعة العمل ، وهو مشغول الفكر على شقيقه الذي يفترض أن تغمره السعادة بتخرج هدى وإكمالها جامعتها ، وكان الرجل محبا لأخيه الصغير فتضايق وتوتر لضيق عزام .

بعدما صليا سنة المغرب في الجامع الكبير المجاور لمتجرهما جلسا في زاوية من زوايا الجامع في أحد الأروقة .. فلما تمكنا من الجلوس همس مسلم : أخبرني يا أبا هدى على الذي يشغل مخك منذ الصباح؟

ـ كان من المفروض أن أكون سعيدا بإنهاء البنت جامعتها .. لابد أنك تذكر ذاك الشاب الذي كان يتعلم معها في الجامعة .. وجاءنا يوما خاطبا لها .

قال : أذكر أن ذلك كان قبل سنتين .. ولكني نسيت اسمه .. وأذكر أنك اعتذرت له ونصحته بأن يبحث عن بنت غيرها ..

ـ نعم ، وأمام إصرارها على الاقتران به .. أجلت الموضوع حتى إنهاء الجامعة .. وقبل أيام اتصل بي أخوه .. وذكرني بهذه الكلام .. فأخرته عدة أيام .. وبكل صراحة يا مسلم لن أزوج ابنتي لغريب وخاصة هذا الشاب .. ولولا كلامك وكلام بعض الأقارب ما درست هدى في

جامعة .. والآن عليك أن تقنع حسنا بالزواج منها .

ـ حسن !! .. وهل تقبل هي ؟

رفع صوته غضبا وقال : يجب أن تقبل .

فقال مسلم : وأنا أقول أيضا يجب أن يقبل حسن .. متى سيكون الإعلان عن ذلك ؟

ـ اليوم الخميس .. وغدا الجمعة سيكون الإعلان عن الزواج ليلا بعد صلاة العشاء .. أنا لا يمكن أن أزوج وحيدتي لغريب .. فحسن أولى بها يا أبا مصطفى .. سيتزوجها ويسكن معي في البيت .. بيتي بيته .. وكل تكاليف ومصاريف العرس والمهر عندي يا مسلم .. أرجوك ولا كلمة .. المهم أن لا يرفض حسن .

ـ كيف يرفض حسن ؟! .. الليلة سأتكلم معه ـ إن شاء الله ـ وأنقل لك موافقته .. حسن شاب طيب ولين ..

ظهرت سعادة عزام فقال : أنا في انتظار ردك .. حتى أرفض هؤلاء الناس ـ وضحك قهرا ـ ابنتي تحب شابا ، وتريد إجباري على قبوله زوجا لها .. خبت إن قبلت .. نحن في فرنسا والغرب .

لما علمت هدى قرار والدها ، رفضت الزواج منه ومن غيره .. وهددت بالموت ، فاشتد غضب عزام عليها ، وكاد أن يهجم عليها ليضربها ، لولا تدخل زوجته ومنعه من فعل ذلك واتصل بشقيق الشاب الذي سبب له كل هذا التوتر والألم ، وأخبره برفضه زواج ابنته من شقيقه ، وترجاه أن يختفي شقيقه من حياتها .. وطلب عزام من شقيقه مسلم محمد تأجيل إعلان الخطبة لأيام .

وجاء شقيق الشاب بلال بشفعاء ، فأخبرهم الحاج عزام أنه قريبا سيعلن زواجها على ابن أخيه حسن مسلم ..وترجاهم مرة أخرى أن يصرفوا ابنهم عن طريق ابنته .. وصداقة الجامعة انتهت بانتهاء الجامعة .. وحذرهم من غضبه وسوء العاقبة .

امتنعت الفتاة عن الأكل أمام إصرار والدها على اقترانها بحسن .. وبعد أيام نقلت للمستشفى .. وحاول أخوالها بعد اطلاعهم على أمرها التدخل ، فأساء لهم الحاج عزام وطردهم من بيته .. وسعوا لدى حسن ليرفض هذا الزواج ؛ لأنه لن يسعد مع أنثى ترفضه وتكرهه ولا تريده زوجا ، فقال بهدوء : أنا لا رأي لي في هذا الزواج! .. أبي يريد ذلك ، وعمي يريد ذلك ..وأنتم أقنعوها ببر أبيها في هذه القضية .. وليس عندي كلام آخر .

رغم أن هدى هي البنت الوحيدة للرجل رفض أشد الرفض أن تقترن من شاب عرفته أثناء دراستها في الجامعة ، ولما رأى رفض الفتاة للزواج من ابن أخيه حسن ، قال مهددا : إذا لم تقترني بحسن فلسوف أطلق أمك .

وأثار ذلك التهديد غضب الأم وأهلها ؛ ولكنه واجههم بقوله : لولا تسترها على ابنتها مع ذلك الشاب ما حصلت هذه الفضيحة .

أقسمت الأم بأنها لم تكن تعرف الشاب ، ولا تعرف بصحبته لابنتها إلا عندما جاء خاطبا ليدها قبل عامين .



زواج هدى

لما رأت هدى الخطر المحدق بأمها ، ورأت شدة أبيها الذي كان يدللها أحسن الدلال ، ويقدم لها كل الأشياء قبل معرفته لذاك الطالب بلال .. قبلت برفض زواجها منه ، وكذلك عدم الزواج من حسن .. قبل عزام الأمر على مضض ، وأجل زواج ابن شقيقه لبضعة شهور ؛ ليدبر الأمر كما أعلم شقيقه .

هدأت العاصفة لحين .. خلال هذه الأشهر اختفى السيد بلال من البلاد .. فقد هاجر لكندا في أمريكا الشمالية .. فلما علمت هدى بهذا الهروب أدركت أن الشاب استسلم ويئس منها .. حاولت أن تعرف عنوانه من إحدى شقيقاته .. فترجتها الشقيقة أن تبتعد عن شقيقها .. ولتبحث لها عن زوج غيره .. رغم جرح كرامتها بهذا الكلام سعت إلى معرفة العنوان من إخوته .. ولكنهم رفضوا التعاون وأخبروها أن والدها هدد بقتله إن لم يبتعد عنها .. وأن المشكلة محصورة بينها وبين أبيها .. وحاولت معهم مرة تلو مرة ، وتجد صدا ونصحا بنسيان بلال .. وكان أبوها أيضا يراجعها بالزواج من حسن ، فترفض وتقول : لا أريد الزواج كله لا من حسن ولا من غيره .

فيرد ساخطا :لابد من الزواج .. أحس بأني سأموت قريبا بسببك .. من ورائك يا هدى .. لابد من زواجك قبل موتي ..

وأمام توسلات الأم وبكائها ، وضغط أخوالها استسلمت هدى لرغبة أبيها .. وخلال أسابيع عقد القران ، وحصل الزواج .. ورحل حسن للحياة مع زوجه في قصر عمه الحاج عزام .. وكان الأب ربما أسعد الناس بهذا الزواج ، وكان حسن يقول لأم هدى : أنا أعلم أن هدى لا تحبني ولا ترغب بي زوجا ..ولا يمكن أن تحبني .. ولكنّ عمي أصر على زواجي منها ، ووافقه أبي .. وكان يرى علاقتها الغرامية بذاك الشاب إهانة لكرامته وثقته بها .. وإهانة لكل العائلة أيضا ، وقد كظم غيظه حتى تنهي جامعتها .. لا تغضبي مني وتكرهينني ، ولا هي

يجب أن تغضب مني .. ها هي في النهاية أطاعت والديها .. أرجو أن لا تكرهيني أنت .

ـ لا حرج عليك يا ولدي .. أنا أعرف عمك أكثر منك ، عشرة عمر .. وقد وقع عليك الاختيار .. فأتمنى لك السعادة والسلامة ، وأرجو الله أن يغير قلبها نحوك .

لم يستطع حسن رغم بساطته وطيبته أن يستولي على قلب وعواطف هدى .. كانت تبغضه وتحتد عليه وتجرحه بالكلام .. وهي تعلم يقينا أن لا يد له بالزواج منها .. حتى لو رفضها لوجدوا قريبا غيره .. أبوها متعصب للزواج من بنات العائلة .. ويحتقر أي شاب أو شابة يتزوج من خارج بنات الأسرة .. مع أن أمها من عائلة غير عائلة أبيها .. ولكنه ذكر لها أن ذلك حدث في ظروف خاصة ، وأن العائلة عندما أراد الزواج لم يكن فيها فتاة صالحة للزواج كلهن كنّ صغيرات ..

مضت الحياة ؛ لأنها لا تتوقف ، ولا تؤثر فيها الحوادث صغيرة كانت أم كبيرة .. أنجبت هدى قبل إتمام السنة الأولى للزواج المولود الأول ، وكان طفلا جميلا سماه عزام عباسا ..

حسن كان مدرسا لمادة الفيزياء في مدرسة صلاح الدين الثانوية .. ولما تزوج هدى كان له سنة واحدة في المدرسة .. فهو يكبرها بشهور فقط وتخرج معها من الجامعة .. وهدى بعد استقرار زواجها رغبت بالعمل كمدرسة ، فلم يرفض حسن هذه الرغبة ، إنما جاء الرفض من أبيها فقال مقنعا لها: أتريدين العمل بعشرين دينارا ؟.. لك مني كل شهر خمسون دينارا .. البيت هو مكان المرأة .. لما أموت تعملين كما تشائين .

ولزمت الصمت ، ولما ولدت مرة أخرى حاولت مع أبيها مرة أخرى فرفض ، فعجبت لرفضه ، وتعجب للعداوة التي تراه يكنها لها وللعمل النسائي .. لقد نسي الحب الكبير الذي كان يخصها به .. هي تعلم عمق الجرح الذي تركه بلال في قلب أبيها لها وله .. كره جنس النساء من وراء تلك العلاقة .. حتى عداوته لها لم تظهر أيام الجامعة رغم الجفاء الذي كان يظهره لها أحيانا .. وصدمت من إصراره على الرفض والعناد ، فمرضت ومرض المولود

الثاني ، ثم مات قبل أن يكمل ثلاثة أشهر .. فحزن عليه عزام وبكاه ؛ كأنه فلذة كبده .. حزن عليه أكثر من أمه هدى .. ومن تأثره بموته مرض هو ، وأدخل المشفى أياما .

كانت أم هدى تقف على الحياد ، وتجتهد على ذلك الحياد ، فكانت تراقب المشاهد بدون كلمة هنا أو هناك ، وتحث ابنتها على الصبر والرضا بقدرها ونصيبها .

كبر عباس وبلغ أربع سنوات ، ودخل في الخامسة عندما ولدت أمه أخته مريم ، وسماها بذلك الاسم الحاج عزام .. وقبل أن تتم شهرها الأول مرض جدها عزام ، وهلك على أثر عملية في القلب .. وكان يردد في ساعاته الأخيرة إذا زارته ابنته " أنت السبب .. أنت السبب " ويشير إليها .

فتنصرف باكية حزينة ، ومع حزنها وألمها من كلمات أبيها كانت تبغضه ولم تطلب منه أن يسامحها ويغفر لها .. وكان في انتظارها بعد موت أبيها مفاجأة قاسية ..وهي أن الأب لم يترك لها بعد الموت الشيء الكثير من الميراث بالنسبة لثروته .. فقد وجدوا أنه تنازل عن أغلب الأموال لحسن زوجها .. وكتب لعباس ومريم الكثير من الثروة ، وترك مبلغا باسم الزوجة ، وسجل القصر كله باسم حسن هبة من عمه لقبوله الزواج من ابنته .. حصلت هدى على خمسين ألف من ثروة أبيها .. وحصلت الأم ثمن الثروة التي ظلت وبقيت على اسم الحاج عزام .. سوى ما كتب على اسمها قبل موت الرجل .. وأخذت أمه أم مسلم التي تسكن مع مسلم سدس الثروة ، وورث أخوه مسلم باقي الثروة تعصيبا .



الطلاق

بعد انتهاء العزاء بأيام وقبل أن تقبض حصتها من ثروة أبيها طلبت هدى من حسن الطلاق ، فتعجب حسن من العجلة في طلبها الطلاق ، وإلا هذا كان متوقعا رغم وصية عمه ألا يفعل ذلك ، فقال لها متضايقا : كيف يكون ذلك ولحم أبيك لم يبرد ؟!.. أنا أعلم أنك قبلت بي رغم أنفك .. مكرهة .. وولدت لي ثلاثة ، ولم تقبلي بي زوجا ، ولم تطب صحبتي لك لليوم .. أنت لم تقدمي لي كأس شاي مرة واحدة من يدك .. الخادمة تطهو أو أمك ..

فصاحت فيه ساخطة : لماذا قبلت بي ؟

ـ الآن تصيحين.. لماذا قبلت بك ؟!.. لمَ لم تصري على الرفض ؟

ـ أنا بنت !!

ـ بنت !! .. كلام فارغ .. أنا كنت على وشك طلب يد ابنة خالتي حسناء .. ولكن أبي أصر على الزواج منك لرغبة عمي عزام بهذا الزواج .. الطلاق لا يمكن ؛ لأنها رغبة عمي .. الهجر ممكن ..

لزمت الصمت فهي قد سمعت من أمها بهذه الوصية .. ولما نقلت لها حصتها المالية حسب الشريعة الإسلامية بعد أشهر جددت الحديث حول طلاقها من حسن مسلم ، وسمعت نفس الرد ، فقالت لاستفزاز رجلها : كيف تعيش مع امرأة تبغضك وتكرهك ؟

ـ هذه المرأة أم الأطفال أم عباس ومريم .. تكرهين العشرة الزوجية .. فأنا مستعد لترك البيت لك .. اما الطلاق فإنه يقلق راحة عمي في قبره ..

صاحت هائجة : عمك ! عمك !.. عمك مجرم !

نهض قائما غاضبا وصاح فيها : عمي مجرم !! نسيت أنك ثلمت شرف أبيك .. أنت المجرمة .

دخلت أمها على صياحهم وسمعته يقول : ألم يوصك أبوك عندما وافق على تقديم أوراقك للجامعة احذري الشباب وقصص الحب ؟ ووعدته أنت بالمحافظة على شرفك وشرف

العائلة ..ووعدته بعدم الوقوع في هذه القصة الفارغة ..

قالت الأم : ما هذا الكلام يا حسن ؟!

صاح فيها هي الأخرى قائلا : تصف عمي أبوها .. زوجك بالمجرم .. أرأيت مثل هذا العقوق ؟! تقول عنه مجرم ؛ لأنه زوجني منها .. أيقبل هذا يا سعيدة ؟ .. تريد الطلاق ولحم الحاج عزام لم يبرد بعد ..

قالت الأم جزعا : تريد الطلاق ؟!

صرخ وقد احمرت عيناه : من بعد العزاء وهي تطلب هذا ..

صاحت هدى : إني أكرهك .. طلقني .. وأبغض كل العائلة من أجلك وأجل أبي المجرم

صاح حسن : كل هذا من أجل شاب ضعيف .. قبض من أبيك بعض المال وتأشيرة هجرة فتخلى عنك سريعا ..

ـ هو أحسن منك .. وأنا أحبه .

لطمها على وجهها عدة صفعات ، وخرج من الغرفة ساخطا ناقما .

حاولت الأم أن تخفف من نقمتها وغضبها ، وحاولت إبعاد فكرة الطلاق من رأسها من أجل خاطر والدها ومن أجل الأولاد من أجل البنت الصغيرة ، فهاجت بعد هدوء وقالت : أنا لا يمكن أن أبقى على ذمته! ..أنا لا يمكن أن أبقى في السجن ..ذهب السجان الكبير .. وسأتخلص من السجان الصغير

قالت وهي تبكي : حسن ليس له دخل .. لو رفض حسن لأتى أبوك بعشرة غيره ..أبوك متعصب للعائلة والأسرة ..

ـ أريد الطلاق .. وبعد هذه اللطمة لن أجلس معه في دار

اتصلت الأم بإخوتها ، وتحدثوا مع والد حسن ، وطابت لهم فكرة الهجر ، ورأوها أفضل من الطلاق في الوقت الحاضر من أجل الرجل الميت .

هدى رفضت الحياة معهم إلا بالطلاق الكامل .. ولما رأى الشفعاء أن لا صلح بينهم ، ولم تنفع دعوات اصلاح ذات البين ، ولم ترق فكرة الهجر لهدى ، فذهب القوم لمحكمة شرعية ، وجرى الطلاق بعد خمس سنين من الزواج .

وظل حسن يحيا في القصر ـ فهو باسمه وملكه ، فقد تنازل له عمه عنه بعد ولادة عباس ـ ربما نكاية بهدى وزوجته .. ولكن رأينا أنه ترك لهنّ ثروة كبيرة في تلك السنوات .. وهدى بقيت فيه .. وبعدما هدأت زوبعة الطلاق أخذ السيد حسن السعي إلى زواج جديد ، وتزوج شقيقة الفتاة التي كانت ستكون زوجته أخت حسناء ، لولا دخول هدى على خط الزواج .. كانت الفتاة اسمها فائزة أخت حسناء .. فحسناء كانت قد تزوجت بعد زواج حسن بشهور وفائزة أحمد هي ابنة خالته ، وأمها قريبة لأبيه أيضا .. ولما تمت الخطبة .. بدأ الاستعداد للعرس.. وأجرى الأستاذ حسن بعض التحسينات في غرفة النوم .. .. ولما جهزت العروس تعين يوم الاحتفال بالزواج .

واعتذرت السيدة هدى من الذهاب لحضور حفلة العرس ..وتقرر أن تقضي بضعة أيام في منزل جدتها أم أمها .. وذهب الناس إلى صالة الحفل للاحتفال بزواج حسن وفائزة كعادة الناس .

وبعد رجوع العرسان للبيت بيومين أو ثلاثة اتصلت أم هدى ببيت أمها تطلب الحديث مع هدى ؛ لتطلب منها الرجوع للبيت .. بيت أبيها ..

فردت عليها أمها دهشة أن هدى رجعت للبيت ليلة العرس .. تركت أولادها عندها ، وقالت : " سأبات في بيتي عند أمي .. وأوصتني على أولادها " .

الهرب

كان آل الرّشاد منشغلين بالعرس ، وكانت هدى منشغلة بالاختفاء ، أقسمت الأم أمام العائلة بأنها لا تعلم من تدبير ابنتها شيئا ، ولا من أفكارها الرديئة شيئا ، فقامت الاتصالات والتحركات شرقا وغربا ، ثم وجدوا قصاصة ورقية في حجرتها تعلن فيها بأنها مهاجرة لكندا أو الولايات المتحدة ، وتطلب منهم عدم البحث عنها ، وأنها تبرأت من اسم العائلة إلى الأبد ولما اتصل أحد أقاربها باستعلامات المطار الدولي للمدينة أكد لهم سفرها في رحلة فرنسا ، وقد أصيب القوم بصدمة كبيرة ، وعاد عباس ومريم للحياة في قصر جدهم وأبيهم .

وكان الجميع يلوم هدى على فعلتها الشنيعة بترك أبنائها من أجل ذلك الرجل ، فقد ترك خروجها الخفي جرحا في كل أفراد عائلتها الأعمام والعمات والأخوال والخالات والأقارب .. حتى فكروا بإرسال شخص أو أكثر لجلبها للبلاد ؛ ولكنهم وجدوا الأمر معقدا ، وليس يسيرا ، فالحكومة الكندية لن تسمح لهم بأخذها عنوة ، ولسوف تكبر القصة ، وتشيع في وسائل الإعلام ، وتكبر الفضيحة ، فرضخوا للسلم والعافية ، وإن كان لديهم أمل كبير بندمها ، واكتشاف خطئها الكبير في حق نفسها والعائلة الكبيرة ؛ ولربما العودة للحياة معهم .

بكى عباس أياما على اختفاء أمه ، ثم تعود على غيابها شيئا فشيئا ونسيها ، وتعلق بجدته وأبيه وزوج أبيه .

دخل المدرسة وبعده بسنوات لحقت به مريم .. وكانت حياتهم تمضي رتيبة هادئة ، لا تخلو من منغصات الدنيا .. هذا وُلد .. هذا مات .. هذا تزوج .. هذا مرض .. ويأخذ الزمن دورته .. وسنة تلو أخرى وصل عباس لكلية الطب ؛ لتحقيق رغبة الحاج عزام الذي حدد له هذا الهدف ، يوم حمله بين يديه لأول مرة ، حين ولادته ، قال : "هذا عباس سيكون طبيبا في العائلة " .. وقد ترك له جده ثروة كبيرة لتحقيق هذا الحلم .. تخرج من كلية الطب ، وكان جرح أمه الهاربة من أجل رجل يحز في نفسه ويثير الشجون في قلبه وكيانه .. ويعجب من

تخليها عنه وعن أخته ، وإن عذرها بالتخلي عن أبيه .. فهذا شأنها وحياتها الخاصة ..أما هو ومريم فلا عذر لها في ذلك ، فيتألم كلما ذكر هذا الألم .. بل كان يتفوه بكلمات قاسية وجارحة في حقها .. وحق كل النساء ، وقبل أن تتخرج شقيقته كطبيبة مثله ماتت جدته سعيدة .. ثم مات جده مسلم والد أبيه في أقل من شهر .

وكلما حدثه أبوه حسن عن أهمية الزواج في حياة البشر يرفض الاسترسال في هذا الموضوع ، فيقول حسن : لا يجب أن تجعل من قصة أمك عقدة لرفض الزواج .. كانت رغبة جدك عزام ـ رحمه الله ـ رفض الزواج بتلك الطريقة .. ومن ذلك الإنسان .. وأصر على زواجي منها هو وأبي .. كان من العار عندهم أن تتزوج الفتاة من حبيب لها .. وكانت أمك تبغضني وأعي ذلك ؛ ولكن حكم العائلة والتقاليد لها دور في حياتنا .. فغلب على ظنّنا أنها ستنسى أيام الجامعة .. بعد الزواج وبعد ولادة عباس وأخته مريم .. ولكنها ركبت رأسها كما يقولون .. ورغم أن جدك طلب مني عدم طلاقها بعد موته طلقتها .. فأمام ضغط العائلة ونشوزها قبلت بالطلاق .. ثم خدعتنا بالقصة التي تعلمها ..فلا تدع هذه الأفكار والصور أن تهدم حياتك وتعقدها ، فليس كل النساء يهربن ويعشقن .. وأنا حسب علمي لم أقصر بالعناية بكم وجدكم فعل كل شيء من أجلكم .. وضع المال باسمك في البنك وديعة وقال "إذا عاشت مريم ، فليعطها عباس مما كتبت له " .. وترك بيتا باسمك، وأجرته تعود إليك وإلى مريم .. وزوجة أبيك لم تقصر معكم .. هي لن تكون مثل الأم بالتأكيد .. والجدة سعيدة احتضنتكم منذ ولدتم .. فهناك نساء طيبات ورائعات يا ولدي .. ففائزة اهتمت بكم كما اهتمت بإخوتك .. فضل .. ومحمد .. راضية .. وسناء .. وعزام .. وقريبا ستتخرج مريم ، وستتم خطبتها لابن أخي محمد الدكتور يوسف .. وهو صديقك ويكبرك بسنة واحدة .. يا ولدي شريكة العمر لابد منها .. وأما فكرة السفر للبحث عن أمك فهي فكرة رديئة ، فهي لابد أنها اقترنت بذلك الفاسد الذي غرر بها ، وهي التي اختارت حياتها بنفسها .. لقد صدف أن

التقيت بأخيه الأكبر .. الذي جاء يوما طالبا ليدها أيام الجامعة ، فأقر لي بأن أخاه تزوج منها بعد طلاقها وهربها إليه في كندا .. وأنا لولا ضغط العائلة ما طلقتها ، كنت أريد هجرها ولكنهم خافوا أن تنتحر أو تهرب .. عرضت عليها أن تبقى لكم ..

كان الدكتور عباس يسمع ذلك الكلام الذي يعرفه ويحفظه عن ظهر قلب .. وهو شارد الفكر فقال : أنا فكرت بالسفر إليها لعلي أستطيع الإتيان بها .. ولكن كما قلت فقد تزوجت ذاك الرجل الماكر .. ولها ذرية منه

ـ إذن علينا أن ننسى أمرها حتى تفوق ، وتعرف حق العائلة والأبناء .. فأسع لزوجة حسناء تقر عينك بها ..وتعينك على حياة الدنيا

تنهد عباس ربما ضجرا وقال : لا تشغل بالك يا أبي بزواجي .. أنا تعقدت حقيقة من النساء بسبب أمي ، وبسبب البنات التي شاهدتهن في الجامعة .. قدمت أوراقي للعمل في طب الجيش .

ـ ولكن يا ابني لا غنى لنا عنهنّ رغم عوجهنّ .. فالزواج دين ، وسنة سيد المرسلين ، وأنت سيد العارفين .



قد سمع عباس قصة زواج أبيه وأمه عشرات المرات ، ولم يضع لوما على أبيه حسن ، وإنما كان الشاب يطيع رغبة أبيه وعمه .. وهو ما زال يذكر طيف أمه التي عاش معها أربع سنوات ونصف ..ويذكر ليلة هربها ؛ كأنه يراها اليوم .. وكلما يتذكر تلك الساعات الأخيرة يتمزق قلبه ألما وحزنا وأسفا .. اعتبرها قد خانت الأمومة ، الرسالة الحقيقية للأمهات .. أخذته

ومريم بسيارة أجرة لبيت جدتها .. لقضاء يومين أو ثلاثة .. نزلوا من السيارة ، وسمعها تطلب من السائق الانتظار .. وقرعت باب الجدة ، وفتحت الخادم لهم ـ كان ابن الجدة خالها قد ذهب لحضور حفل زواج حسن مسلم ـ وقالت لجدتها من بوابة البيت " احفظيهما حتى ارجع ".. شاهدها عباس تركب السيارة ، ولوحت لهما بيدها ، ثم اختفت ، ودخلوا البيت حيث قدمت لهما الخادم الشراب والحلوى .

وما زالت يدها تتحرك أمامه مودعة لهما .. هذه الصورة ، وهذا المشهد ما زال عالقا في ذهنه ومخيلته .. ويتسأل : كيف هان عليها فراقنا ؟! لو كان موتا لهان الأمر .. هربت .. هربت من أجل رجل أحبته ..!!

أما شقيقته مريم فهي لا تتذكر شيئا ، كانت ابنة سنة تقريبا .

وكلما يتذكر رغبة والده بتزويجه يهيج ويتضايق ويصرخ في داخله " لا زواج .. لا نساء .. النساء شر " ثم يتذكر قول بعضهم في ذلك " النساء شر لابد منه " من وضع هذه العبارة الخالدة ؟!.. ويغرق متأملا صحة هذه الحكمة والعبارة .. " شر لابد منه " .. لابد من امرأة في النهاية .. ولكن صديقنا الدكتور زاهر قطي يرى غير ذلك .. يرى أن النساء من نعم الله الكبرى على الذكر .. آدم لم يعش في الجنة بدون أنثى .. فخلق الله له حواء .. ويقول "النساء ذوات عقول ساذجة .. بسيطة .. لا يحببن التفكير المعقد ..عاطفتهن في عقولهن .. إذا أحبت شيئا كان هو الحياة والدنيا .. وإذا كرهت شيئا كان هو العذاب والجحيم "

عندما يتذكر عبارات زاهر قطي في النساء يقول : هل هناك غاية من النساء غير الإنجاب ؟ .. هل حقا ما يتحدثون به عن المتعة الجنسية والحياة الجنسية ؟! أم خرافات تنتقل عبر الأجيال ، وأصبحت كأنها حقائق ؟.. هل الحيوانات تستمتع بالمعاشرة الجنسية ؟.. أم جماعها للإنجاب وبقاء الجنس والنوع .. هل يختلف الإنسان عنها ؟!" .. وفي النهاية مهما فكرت وفلسفت الأمور يا عباس .. لابد من الزواج .. فليكن الزواج في النهاية

هَذَا جنَاهُ أَبِي عليَّ ... وَمَا جَنِيْتُ عَلَى أَحَدِ

ردد بيت الشاعر أبي العلاء مرات .. وقال : سألتحق بالجيش ثم أذهب للتخصص في جراحة القلب على نفقتهم في ألمانيا الغربية .. لعل انشغالي بالعلم والطب يندمل الجرح الذي يمرض قلبي .. هربت وتركت ولديها من أجل شهوة مع رجل .. حبيبها يا له من حب ! .. هل يستحق هذا الحبيب كل هذه التضحية ؟ النساء .. النساء مرض .. لقد سمعت الكثير من التعيير بسببها .. امرأة تترك أطفالها الصغار لأجل رجل.. يقولون هربت من أجل عشقيها .. عشقته !!..يا الله ! .. المرأة تترك الزوج من أجل أولادها .. ألم تفكر أمي بذلك ؟!.. إنها مجرمة ! .. إنها أمي !.. إنها أنانية !.. ألم تفكر بنا ؟ وما سيلحق بي وبمريم من فعلتها تلك ؟ لو ظلت على الطلاق لكان الأمر أهون .. رحماك يا الله .. أخطأت وأجرمت في حقنا !.. نحن في بلاد عربية .. العائلات لها حقوقها وتقاليدها .. نحن لسنا في أوروبا وأمريكا .. حتى لو أساء رجل للعشيرة والحمولة بحماقة .. لظل الناس في رواية حكايته .. فما أزال أسمعهم يتندرون بحكايات أموات في مجالسهم .. فلان حرامي لص مواشي .. وفلانة تخون زوجها ..حتى لو ضحكوا في وجهك وراعوا مشاعرك .. فهم يتناقلون تلك القصص .. هدى عزام هربت لكندا من أجل صاحبها الذي عرفته في الجامعة .. تركت أولادها من أجله .. الناس .. ويحنا من الناس .. ألم يقل لي ذلك العجوز عندما عرفوه عليّ وابن من أنا " أنت ابن تلك المرأة الهاربة إلى الغرب ؟" .. يا لها من لطمة! كدت أن أثور بوجه العجوز واطرحه أرضا .. ما ذنبي أنا ؟ هل قلت لها اهربي مع حبيبك ؟ وما ذنب مريم ؟!.. الحمد لله ان مريم ستتزوج ابن عمها يوسف .. فهم يعرفون قصة أمنا الهاربة ، ويعرف عقدتنا .. مسكينة مريم كم رأيتها تبكي وتبكي وهي تسمع قصة الهرب الشائن .. وتردد " ألم تفكر فينا ؟" .. " لماذا يحمل الأبناء خطأ الأجداد إن حسب ذلك خطأ ؟! "

هل أخطأ جدي عزام بإجبارها على الزواج من أبي حسن ؟ أين يكمن الخطأ ؟ كيف يسمح لها

الشيخ بالزواج من رجل التقطته في الجامعة والكلية ؟! .. لقد قبل الآلاف الخمسة والهجرة لكندا من جدي عزام ليختفي من حياتها .. إنه ثعبان .. لو اختفى من حياتها ما تورطت بالهرب إليه ظل خائنا يراسلها .. ألم يوجد بعد هربها بضع رسائل في حجرتها ؟ .. رغم تعهده وأخذه المال ظل خائنا .. كان أبي يعرف هذا ويصمت .. صحة الجد قد تعبت ، ولم تعد تتحمل أفعال هدى الصبيانية .. أفعال المراهقين .. حب .. هذا حب !.. أعطاني بعض الخطابات ذات مرة حتى لا أظلمه في يوم ما على طلاقها . وقال " يا بني جرحت كرامتي ومشاعري .. ولكن من أجلكم ومن أجل جدكم غضضت الطرف ، وتجرعت كأس السم .. واحتفظت بهذه الخطابات حتى لا يقال يوما أنني اخترعتها لأبرر طلاقي منها ".



طبيب في الجيش

تعاقد الطبيب عباس مع الطب العسكري ، وأخذ دورة عسكرية ابتدائية لمدة ثلاثة أشهر ، وأعطي رتبة عسكرية ثلاثة نجوم على كتفيه ، وستقوم الخدمة الطبية بإرساله لألمانيا الغربية لدراسة جراحة الدماغ والقلب أو أحدهما .. وألمانيا قد قسمت بعد هزيمة هتلر لدولتين شرقية تابعة للاتحاد السوفيتي ، وغربية تابعة لأوروبا والغرب .

وسعى حسن غير يائس لتزويجه قبل سفره للعمل في مستشفيات ألمانيا والتخصص الطبي فاعتذر ، وقال : اخترت الطب يا أبي على النساء .. خذ بالك من مريم ، فهي رقيقة المشاعر وتعاني مثلي من فعلة أمي .. لعل الجرح يندمل في قلوبنا مع الزمن .

ـ يا ولدي لا تزر وازرة وزر أخرى .

ـ ذاك عند الله سبحانه يا أبي !

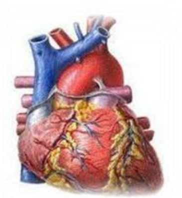
تنهد حسن حزنا ، وقال : سافر وتوكل على الله .. ولنكن على اتصال دائم .. فالغربة مرة .. وهذه آخر مرة أكلمك فيها عن الزواج.. فالزواج والحياة الزوجية في فترة الشباب هي من أجمل سنوات العمر.. والإنسان يضعف مع الوقت والتقدم في العمر ..

ـ سامحني يا أبي على مخالفتي لك في موضوع النساء .. رغم حواراتنا الكثيرة حوله لم استطع نسيان حادثة أمي .. سأدعوك لزيارة بلد هتلر برلين ..

أقام حسن وليمة كبيرة وليمة وداع لبكره ، دعا إليها إخوته وأبنائهم وأبناء عماته وأخوالهم ، ودعا إليها عباس بعض رفاقه الأطباء ، وكانت وليمة وداع يذكرها الأهل لسنوات ، وقد أدخلت هذه الوليمة السرور على قلبه ، ورأى العواطف الصادقة والمزيفة من الأقارب ؛ ولكنه سعد بوليمة أبيه ، وبعد أيام ركب الطائرة مسافرا إلى فرانكفورت في ألمانيا الغربية .

استقر عباس في مدينة ألمانية ، واستقر في سكن معدا سابقا لطلبة البعثات في عمارة واسعة وعديدة الطوابق ، وعين له مستشفى عسكريا كبيرا للعمل فيه والدراسة فيه .. وأخذ يتنقل

بين عمليات الجراحة في قسم جراحة القلب وجراحة الدماغ في المستشفى والبيت .. واندمج في هذه الحياة ، وأحيانا كثيرة كان يقضي الليل في المستشفى في أقسام الطوارئ ، وارتاح نفسيا أثناء ممارسة العمل .. وفي ساعات البيت يتحدث مع مريم والدكتور يوسف زوجها .. ويتصل بوالده وبعض الأصدقاء .. استعان بخادم عجوز تعنى بتنظيف وترتيب بيته أو قل شقته .. كان عليه أن يقضي أربع سنوات على الأقل لينال الاختصاص الطبي ، ويتخلل هذه السنوات إجازات سنوية .. فحياة الاختصاص ثقافة وعمل .. ندوات طبية .. والعمل في المستشفى .. وقد كان الطبيب مجتهدا ومتفوقا .



وبشكل عام يفضل بأن يكون التمويل للطبيب في ألمانيا أو أوروبا الغربية من جهة رسمية منحة أو بعثة ، وليس بتمويل شخصي خاصة لدرجة التخصص الطبي .. ويجب أن يكون الطالب مسجلا في النقابة في المقاطعة التي يعمل فيها .. وبعد مرور الوقت اللازم للتخصص وإنهاء كل الدورات النظرية والعملية المقررة ، واستيفاء شروط غرفة الأطباء الألمانية بالتخصص (تختلف بحسب التخصص) يقوم البروفيسور أو الطبيب المشرف على التخصص بكتابة تقرير نهائي شامل لكل المراحل التي مر بها الطالب ، ويزكى للتقدم لأداء امتحان التخصص ، ودون موافقته لا سبيل لأداء الامتحان .

وهناك من يجري الفحص المحلي والتجريبي لمعرفة القدرة النظرية له من قبل أخصائي المركز الذي يعمل فيه ، وتجرى دورات تدريبية في كل سنة في المراكز القلبية لمدة أسبوع للتحضير النظري قبل التقدم إلى الامتحانات ؛ لتقييم الطبيب قبل أن يتقدم إلى الفحص النهائي.

سوف يقوم طالب الاختصاص بكتابة طلب لتقديم امتحان التخصص مرفقا بتقرير المشرف

على تخصصه لغرفة الأطباء التابع لها المستشفى ، وهناك جداول للامتحانات تقوم غرفة الأطباء بعد مراجعة الملف الخاص ، وتقرير المشرف على تخصصه بإعطاء المتقدم موعدا للتقدم لتقديم الامتحان ودفع رسوم الفحص .

الامتحان هو عبارة عن مقابلة شفهية تتم بغرفة الأطباء ، ويتم من خلالها اختبار المتخصص من قبل أربعة أساتذة مختصين من مناطق مختلفة من ألمانيا أو من الأخصائيين المدعوين من خارج ألمانيا ، ولن يكون من ضمنهم أي ممتحن ممن تعمل معهم أو عملت عندهم .

يتم الفحص باللغة الألمانية ، ويدوم عادة من أربعين دقيقة إلى ساعة ، وبعد نهايته يطلب من المتقدم الانتظار خارجا لبعض الوقت ، ومن ثم ينادونه ليتلون عليه بروتوكول نتيجة الامتحان ، وأخذ شهادته الموقعة والمختومة من رئيس نقابة المقاطعة التي تنتمي إليها أو تقريرهم عن نقاط ضعفك والفترة الزمنية الإضافية التي تحتاجها لتقديم الامتحان من جديد بعد الحصول على الشهادة يمكن طلب ترجمتها للغة الإنجليزية من قبل غرفة الأطباء المركزية مجانا بالإضافة إلى طلب تقيميها كأعلى شهادة يحصل عليها المتخصص في ألمانيا ومعادلتها حسب قانون الشهادات الأوربية فشهادة التخصص الألمانية أعلى من الزمالة البريطانية ، وتعادل شهادة إكمال التخصص التدريبي البريطانية ، تحصل على هذه الشهادة من غرفة الأطباء الألمانية ببرلين ومجانا .

ألمانيا هي الدولة الأولى في أوروبا التي تجرى فيها أكثر العمليات القلبية والإجراءات التشخيصية مثل القساطر { جمع قسطرة } أو إجراءات التوسيع بالبالون مقارنة مع جيرانها .

والمختص هو الطبيب الجراح العارف والمتمكن والملم نظريا وعمليا في المعالجة الجراحية لأمراض القلب المكتسبة والتشوهات الخلقية الولادية وأذيات القلب مع معالجة الأوعية المجاورة للقلب والأمراض الرئوية التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع المرض القلبي ، بالإضافة إلى معرفة الإجراءات التشخيصية للمريض القلبي ، ومتابعة المريض أثناء وبعد

العمل الجراحي ، إن اختصاص جراحة القلب تغطي معالجة وتشخيص الأوعية الدموية المتواجدة في القفص الصدري فقط ، أما الأوعية خارج القفص الصدري فهي من اختصاص جراحين الأوعية. كان المشرفون على الطبيب عباس معجبين بقدراته ومهاراته ، وقد استوعب الشاب اللغة الألمانية وخاصة الطبية بسرعة .. وعباس صاحب خلق حسن منذ بداية حياته .. وكان معقدا من البنات والنساء ؛ لذلك كان يتعامل مع الطبيبات والممرضات والمريضات بجدية ورسمية تامة .. لا يحب المزح مع الفتيات عاملات ومريضات .. وحتى التدخين بغض إليه صغيرا ، ولم يشربه إذا صح هذا التعبير .. "ألا وهو قولنا شرب الدخان " .. لعلهم قاسوه على شرب الخمرة والكحول . كان عباس من هواة المطالعة وبشغف مشهود منذ نعومة أظفاره .. ولعب كرة القدم في أول سنوات الدراسة ؛ لأن هذه اللعبة بدأت تغزو العالم بجمع مكوناته ، وشاعت في المدارس الذكورية ، وقد تعرض لحادث خلال ممارستها ، ثم هجرها بعد شفائه من الكسر الذي أصابه .. وكان يهوى قراءة كتب الفلسفة والفكر والعقائد .. وكان يكره الاختلاط بالجنس الآخر ، ويتجنبه قدر الإمكان .

وكذلك السهرات كان لا يحب الإكثار منها ، وإذا حضرها كان مستمعا فحسب .. فإذا سمع بعض الأصدقاء يصفه بالمعقد .. فيقابله بابتسامة .. كان يلعب كرة الطاولة في الجامعة .. كان مغرما بالعزلة .. بعدما ارتاح للعمل والاختصاص في ألمانيا طلب من والده وشقيقته مريم زيارته والسياحة في بلاد الألمان والجرمان .

اعتذرت مريم وزوجها يوسف لشقيقها عن السفر ، وسافر والدها حسن لمدينة فرانكفورت واستقبله عباس في المطار ، واستقل وإياه سيارة تكسي إلى شقته .

وبعد استراحة لبضع ساعات خرجا للعشاء في أحد المطاعم التي يتردد عليها عباس ، وتجولا في أحد الأسواق القريبة من المطعم ، ثم عادوا للشقة .. حيث أعدت لهم الخادم العجوز القهوة بالحليب .

فقال حسن : أنا سعيد بسعادتك يا عباس العزيز.. شقتك واسعة رغم أن العائلات الألمانية صغيرة وقليلة العدد .. لا يحبون الأولاد الكثر مثلنا نحن الشرقيين .. طفل طفلان فحسب .

ـ الغالب يفعل ذلك ، وهناك عائلات تحب المواليد .. وتشجعهم الدولة أو المقاطعات على الإكثار من المواليد .. لقد عالجت نساء مريضات بالقلب ويحببن الإنجاب كنساء المسلمين .. والدولة تكفل المواليد بالرعاية والحضانة .. لتشجيع الولادات .. ألمانيا كما تعلم يا أبي خاضت في مطلع القرن العشرين حربين عالميتين .. وفقدت الكثير الكثير من أبنائها ، ولكنهم شعب قوي .. فنهض اقتصادهم وتطورهم بسرعة وعزيمة قوية .. والنساء لهنّ دور كبير بعد الحرب في بناء ألمانيا الجديدة .. وصناعة ألمانيا قوة اقتصادية كبيرة .. رغم بدايتها من الصفر لكن العقول بقيت وعمرت .. فأنا معجب بالشعب الألماني من أيام المدرسة الإعدادية حيث درسنا عن التاريخ الأوروبي .. فهم ينافسون الدول المنتصرة في الحرب الكونية .. لقد كانت الهزيمة حافزا كبيرا لهم للظهور على المسرح العالمي ، ومثلهم اليابان .. نحن العرب رغم كل الإمكانيات المادية المتوفرة في بلادنا ما زال تطورنا ضعيفا ضئيلا .. ألمانيا تصنع الدبابات والطائرات والسفن والصواريخ والغواصات .. علاقة ألمانيا بأمريكا جيدة .. وللأمريكان قواعد عسكرية هنا في ألمانيا منذ انتهاء الحرب الكونية الثانية .

ـ آباؤنا كانوا معجبين بهتلر والنازيين .. وكانوا يحلمون بأن تنتصر ألمانيا على الحلفاء .. ويساعدونا في الاستقلال والتحرر من القبضة الانجليزية .. وهزمت ألمانيا وظهرت دولة إسرائيل ..{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}

لما صمت حسن قال عباس : سمعت أنك تقاعدت يا أبي ؟

ـ أنا أنهيت خدماتي مع الحكومة بعد سفرك بسنة ..وأخوك فضل سيتزوج صيف هذا العام إن شاء الله تعالى ..

ـ هل أنهى الجامعة ؟

قال : على وشك التخرج .. أختي أم مسلم تريده لابنتها .. ابنتها تخرجت من الجامعة ببكالوريوس علوم ..

ـ على بركة الله .. نفس السن هما !

ـ لا ، فضل أكبر منها ، إنما تأخر سنة في الدراسة عندما مرض ، كما تذكر .. مريم اشتغلت في مستشفى خاص .. وأكيد أخبرتك بذلك ؛ لأنها تقول إنها تتصل بك دائما ..

تنهد عباس للحظات وأجاب بحرقة : إننا نخشى الأقارب من فعل أمنا .. فأنا سعيد بزواج مريم من يوسف .. فهو شاب نشيط وصديق عزيز لي .

قال : لا أحد يستطيع لومكم .. بل هم يشفقون أو كانوا يشفقون عليكم .. وأمكم أسأت للجميع .. هي لو اتصلت به ، وطالبته بالعودة ليتزوجها بين أهلها ، لا أحد سيعترض خاصة بعد موت عمي عزام ، قد يعترض بعضهم شكليا .. من يحرم الزواج المحترم ؟! .. اختارت طريقة سيئة لفرض الأمر الواقع .. أصلحها الله يا ولدي ..

قال عباس بحزن يشبه البكاء : للأسف كنت أشعر بالنقص والهزيمة عندما أجتمع بالأقارب

ـ أنت صنعت هذا الخوف .. فليست هي أول امرأة في العالم تفعل هذا .. ولا أحد مسؤول عن غيره إذا بلغ العقل والبدن .. المرء يتحمل مسؤولية تصرفاته وأخطائه .

ـ رغم اندماجي الشديد في العمل والعلاجات .. أحيانا أعيش مع صفحات الماضي .. وإساءة الإنسان لغيره حتى لو لم يقصد ذلك سيئة وجارحة للأحاسيس والعاطفة .. وأصل يا أبي إلى القول " لو أنها ماتت لكان ذلك خيرا لنا .. أما تتركنا من أجل شهوة وعاطفة فهذا الذي يحز في النفس ويقلقها" .. لليوم لم استطع النسيان .

قال حسن مشفقا ومتألما: كم أود لو تنسى هذه القصة !! لتحلو لك الحياة وتفكر بالأبوة والذرية الصالحة .. الحياة مليئة بالقصص والمآسي .. كان جدك عزام متعصبا للتقاليد والأسرة كان شيئا مستهجنا تلك الأيام .. أن يرى ابنته الوحيدة التي بذل الغالي والرخيص من أجلها

تأتيه بعريس من الجامعة .. أما اليوم فيستسيغ الناس مثل هذا الزواج .. التقاليد تتحول وتتغير .. فلسفة الناس في بعض العادات تتغير .. فاليوم نسمع أن فلانا من الناس تزوج فتاة تدرس معه .. فتاة تشتغل معه .. فلذلك بدأت تظهر العنوسة في مجتمعاتنا ، وزاد سن الزواج لدى الجنسين .. فكانت صدمة لجدك أن تأتيه ابنته بعريس لها .. فرفضه بشدة وهجّره من البلد .. وفعله كان مقبولا من الناس والعائلة يا عباس .. وشاء الله أن تلدكم أمكم من صلبي أنا.. أدوات منع الحمل لم تكن شائعة كشيوعها اليوم .. كان عمي يرى الأيام دواء للنكبات والمشاكل .. وأمك أصرت على الطلاق رفضت الهجر .. وتدخل أخوالها خشية أن تحرق نفسها أو تتجرع سما .. أو الهرب .. فاستسلمت لرغبتهم .. قصص الحياة كثيرة .. والعبرة في الذكرى .. والذكرى لا يجب أن تدمر حياتنا ..ونظل نتجرع مرارتها .

تنهد الشاب السامع الصامت وقال : ليتني أنسى .. لقد حملتني الهم منذ الصغر .. لماذا هربت أمك ؟ .. سؤال قاتل ..

ـ قلت لك يا عباس تزوج دعنا نزوجك .. مع الأسرة والأطفال ستنسى .. ستنسى .. أطفال تهتم بهم طعاما ولعبا ومدرسة .. ستنسى ما حملت من غم وهم .. فأنت في مهنة تريك مآسي البشر وآلام الناس .. الغني والفقير .. كيف يبكون ؟ وكيف يضحكون ؟ من يموت مريضهم يبكون ! .. من يشفى مريضهم يضحكون ويسرون ولو إلى حين .. عشرات يتزوجون ولا يوفقون في الزواج .. فسجلات المحاكم الشرعية تؤكد حالات الطلاق الكثيرة أن يظل الإنسان حبيس نفسه فسيدمر حياته كلها .. الأبوة حلوة يا ولدي .

أمضى الرجلان سهرة يقلبان فيها جروح الماضي وآمال الغد ، وكيف النجاة منها بعد مرور كل هذه السنين ؟

أم عباس

ذات ليلة عاد عباس بوالده من زيارة معرض طبي في صالة مشهورة في المدينة.. عرضت الخادم عليهما الطعام ، فأثنى عليها عباس ، وأعلمها بأنهم أكلا في أحد المطاعم ، وطلب منها صنع الشاي لهما ، وجلسا في غرفة المعيشة ، وقدمت لهما الخادم أطايب الفاكهة ..وأخذا يتحدثان عن مشاكل الشرق الأوسط وحرب لبنان ، ثم قال حسن : اقترب موعد سفري .. اليوم أكدت حجزي .. وأريد شراء بعض الهدايا للناس في الوطن .. أنا أعرف أنك غير ماهر في ذلك رغم أن جديك كانا من كبار التجار .. لكن دلني على سوق مهم في هذه البلدة .

قال : سأفعل .. وسأشتري هدية خاصة لمريم وزوجها يوسف ، ولأمي فائزة أم فضل .

رن جرس الباب ، فدهشا ممن يطرق عليهما البيت في الليل، وإن كان في أوله ، وجاءت الخادم تقول والاستغراب باد عليها : امرأة تريد الحديث معك يا سيد عباس !

ـ امرأة .. وما اسمها ؟!

ـ رفضت ذكر اسمها ، وهي مصرة على الدخول .. فالتفت عباس لوالده وقال : عجيب ليس لي صديقات من الجنس الآخر .. لا طبيبات ولا ممرضات !

قال حسن : دعيها تدخل .

وأشار عباس لها بالسماح لها بالدخول ، وخرج لصالة البيت ليرى المرأة ، ولما اجتازت البهو وقفت ، ولما رآها حسن هتفت هي استغرابا : حسن !

فحدق فيها دهشة هو الآخر وهمس : هدى عزام !

ونظر حسن لابنه وقال : هذه أمك يا عباس !

صاح عباس الذي تبع والده خارجا من غرفة المعيشة مذهولا : أمي .. هذه أمي !! وكان يشير إليها بيده مستنكرا .

فقالت بقوة : نعم ، أنا أمك يا عباس !

لم يتقدم نحوها ، وهي جمدت مكانها ، فقال حسن : سلم يا ولدي على أمك .

فقالت : لم أكن أعلم أنك هنا يا حسن .. عباس أنا أمك .

فقال الشاب المذهول وهو يشير إليها بسبابته : أنت أمي ؟! أنت أمي ؟! ولماذا جئت ؟!

فقال حسن مستغربا : ما هذا السؤال يا عباس ؟!

تقدمت هدى منه وسلمت عليه ، وحاولت احتضانه ، فدفعها برفق ، وقال بحدة خفيفة : بعد أكثر من عشرين سنة تذكرت ابنك عباسا .. أن لك ولدا اسمه عباس .. ما ذنب عباس ومريم ؟!

ـ هكذا تستقبل أمك يا عباس .. لم يحسن حسن تربيتك .

صمت حسن لم يرد على استفزازها رغم الألم الذي عصر قلبه ، فقال عباس بحدة أشد من الأول : أبي أحسن منك كثيرا ! .. أنا لا أشعر بأي ميل نحوك .. لم أحبك يوما ، ولا أتصور أن أحبك في يوم ما .. ولم أشتاق لك لحظة .. تأخرت يا أمي بالمجيء .

ـ أتريدني أن أنصرف ؟

ـ سيان عندي

قال حسن متدخلا : لا ، امكثي سيهدأ عباس .. ولكن كيف عرفت أنه هنا في هذه الشقة ؟!

ـ كيف حالك يا حسن ؟

ابتسم وقال : دعيك من حالي ..لابد أن أقارب زوجك ينقلون لك أخبار عباس وآل الرّشاد .

فقالت : هو ما تقول .

ـ أنا لم أحرمك من أولادك يا هدى .. أنت حرمت نفسك منهم .. وأنت التي هجرتنا .. رسالة برقية لم نر منك .

صاحت محتجة : حسن .. أنا ما زلت أكرهك .

ـ اكرهيني كما شئت .. عباس سأدخل حجرتي .. تحدث مع أمك ، تعرف عليها

فصاح عباس في وجهها : أرجوك أن تنصرفي .. أمي التي ولدتني ماتت .. أنا لا أحبك .. أنا أبغضك .

فقالت : هكذا ربوك وعلموك .. علموك بغضي .

ـ أنت بغضتيني لنفسك .. أم تترك صغارها لقضاء شهوة في حضن رجل .. مهما كان هذا الرجل .. الحشرة لا تتخلى عن أن بيوضها .. أبي قبل طلاقك رغم وصية أبيك .. ولكنك أنت رميتنا من أجل حبيبك وهواك .. من أجل صديقك .. من أجل شهوتك .

صرخت : عباس .. أرغموني على الزواج من أبيك .

ـ لا يوجد إرغام .. أنت مأساتي يا من كنت أمي .. أرجوك أن تنصرفي .. إني متعب لم أكن مستعدا لهذا اللقاء .. تهربين منا .. مني ومن مريم .. أنت لما هربت لم تكوني على ذمة أبي .. أكرهك !

قالت : سمموك عليّ .

ـ لم يسممني أحد .. أفعالك الدنيئة هي التي سممتني .. لبسنا العار من فعلتك الشنيعة .. خزيتينا أمام العائلة والناس .. أنت زرعت فيّ صورة مؤلمة للأمهات .. بعتنا من أجل شاب طماع .. شاب قبض المال من أبيك ليختفي من حياتك .. ثم نكص على عقبه .. خائن!

ـ عباس لا تسيء لزوج أمك والد إخوتك .. أنا مظلومة ، هم رفضوا زواجنا .

ـ أرجوك الخروج .. أنا لا أم لي .. ماتت في قلبي ، وإن كانت تمشي على الأرض .

ـ ألا تريد معانقة أمك وتقبلها ؟

صاح سخطا : أنت أم ؟! أي أم أنت ؟!

ـ أمك التي حملتك في بطنها شهورا ، واحتضنتك سنوات .

ضحك بسخرية وقال : ثم رمتني عند أقاربها ، وهربت للقاء الحبيب الخائن .. أمي التي قبلت بأبي زوجا ، ولما مات أبوها أجبرته على طلاقها .. اسمعي أنا أعرف تفاصيل حياتك ..

أمي التي كانت تتراسل مع حبيبها وهي على ذمة رجل ، وتفعل ذلك من وراء زوجها .

صرخت بشدة : عباس !!

ـ عباس يعرف كل الخزي .. أين احترام خاطر أبيك وزوجك ؟.. أين التضحية من أجل خاطر الأبناء ؟! .. أنت جنيت علينا .. دمرت حياتنا

ـ ما أقسى كلامك !

قال : قلبي مليء عليك .

ـ أحبك رغم كل هذا الكلام الجارح .

ـ دعيني من كذبك .. الحب تضحية ليس كلاما ..

ـ ألا تريد أن تتعرف على أخويك وزوج أمك ؟

قال هازئا : زوج أمي .. صديق أمي.. أجننت ؟ وهل مات أبي لأفرح بزواجك .

ـ سأغادرك الآن .. جئت من كندا من أجلك ، من أجل رؤيتك يا عباس

ـ لو لم أجئ إلى ألمانيا ما فكرت برؤيتي !



أغلقت الخادم باب الشقة بعد انصراف هدى ، وخرج حسن من حجرته ، وظل صامتا حتى وصل لعباس الذي ما زال قائما يتابع خطوات انصراف أمه بذهول ، وضع يده على كتفه برفق وهمس : عباس .. عباس

التفت إليه عباس منتفضا : ذهبت !

ـ نعم ، ذهبت .. ثم تنحنح وتابع قوله : لم تحسن استقبالها يا عباس إنها أمك وستبقى أمك .

قال بشروده : هذه هي أمي يا أبي! .. التي ولدتني قبل أكثر من ربع قرن .. أمي .. هل تحبني أمي يا أبي ؟!

ـ بالتأكيد أنها تحبك .. إنها أم .

ـ لا ، لا .. إنها تحب ذاك الرجل صديقها رفيق الجامعة .. الذي سافرت إليه وتخلت عنا .. إنها تحبه .. الأم تتخلى عن زوجها من أجل أبنائها .. لو كانت تحبنا يا أبي ما تركتك من أجلنا نحن أنا ومريم .. لظلت ، وبقيت معنا ..

قال حسن مخففا من الضيق الذي أصاب عباسا : بغض النظر عن كل الخواطر السوداء في ذهنك فهي أمك .. والدين عندنا يعظم الأم .. الأم لها حق كبير على الابن ..

وقال مجيبا بشرود في تلك الدقائق التي رأى فيها أمه : ونحن أليس لنا حق ؟

ـ لك حق .. حق الحمل والحياة والحضانة والتربية .. ولكن إذا لم يقم الأب أو الأم بهذا الحق لا يعني أن يذهب حق الأب والأم .. اسمع يا ولدي عليك أن تحسن استقبالها لأنها ستعود .. وهي تخاف من العودة لبلادنا للأفكار السيئة الشائعة في بلادنا عن الشرف والدم والعصبية .. فهي ربما تظن أننا سنفعل بها سوءا ؛ لأنها هربت وعصت الأسرة الكبيرة .. أما هنا فقوانين هذه البلاد يزعمون أنها تراعي حق النسوان أكثر من بلاد العرب والإسلام .. فديننا دين البر والوفاء للأم والبنت والشيخ الكبير .. ولسنا بحاجة لعيد الأم والأب .

لما لم يرد عباس تابع حسن الكلام : أنا مسافر بعد يومين ـ إن شاء الله تعالى ـ فأرجوك أن تحسن استقبالها ..فهي ابنة عم أبيك وابنة الحاج عزام جدك الفاضل .. اغفر لها يا عباس .. تعرف على الأخوة ، وربما تعود وهم بصحبتها .. هم أخوتك قدرا .. الإنسان لا يختار أباه ، ولا أمه ولا عائلته ولا بلده .. لا ضير من التعرف عليهم .. إنما هي سويعات ، وكل ينصرف لموطنه وعمله .. فهم أخوتك شئت أم أبيت .. وخذ بالك من عملك .

جلس الرجلان وقال عباس : أنت قوي يا أبي ! .. لا تحقد عليها .. ألا تكرهها ؟!

ابتسم حسن وطلب من الخادم صنع القهوة لهما وقال لولده بتمهل : ليس الأمر هكذا يا عباس يا عزيزي .. أنا لم أحبها يوما كزوج وحبيب .. حاولت ذلك ولم أنجح .. إنها كانت قاسية معي لم تفتح لي قلبها أبدا .. أنا كنت حقيقة لأمك مجرد زوج كرغبة أبي وعمي .. ومع ذلك صبرت لم أتزوج عليها .. ولم أفكر بذلك مع أن جدك الحاج عزام رغبني بذلك ، فقد أدرك كرهها الشديد لي ؛ لكني احترمت تضحيته ، وراعيت الجرح الذي سببته له .. وهي طول مدة زواجنا كانت تثيرني وتحثني على الطلاق ، وحتى عندما مرض جدك ذكرت ذلك ، وعند موته كررت الطلب .. كانت تكثر من قول " إني أبغضك .. كيف تعيش مع امرأة لا تحبك ؟ تستفزني لأطلقها .. الحب ليس الأساس الذي تقوم عليه الزوجية .. ربما يكون الزواج مصلحة مالية .. طمع .. لكن إذا زينت الحياة بالحب فهذا يضيف السعادة والبهاء للعلاقات الزوجية .. وقد يأتي الحب بعد الزواج ، وهذا أفضل من حب قبل الزواج .. وقصص فشل الزواج بعد حب كثيرة ..لأن أيام الحب ليست كأيام الحياة الزوجية .. مسؤولية وبيت وطعام وإنفاق .. فقصصه متكررة وفي كل المجتمعات .. وهذه المحبة أو المحب لو مات أحدهم .. سيبحث كل منهم عن حب جديد .. هكذا الحياة .. وفي النهاية هدى ابنة عمي .. رحم لي .. عليّ صلتها والإحسان إليها .. وهي أمكم ، كرهنا تصرفاتها ؛ ولكني لا أحقد على شخصها وذاتها .. رغم العار الذي سببته للأسرة والعائلة .. تظل قريبتنا وأمك وأم مريم .. الإنسان يضطر يا ولدي كثيرا أن يعيش مع خصومه وأعدائه ومبغضيه .. لا يوجد المجتمع المثالي النابض بالحب الكامل .. فأوصيك يا عباس أن تحسن المعاملة معها رغم فعلتها القبيحة في حقك وحق مريم وحق أبيها رحمه الله .

كان عباس يسمع وهو مستغرب من كلام والده في حق أمه .. كان يظن لو تمكن أبوه من أمه لخنقها .. لذلك لما صمت الأب ، قال عباس بتأنٍ : إنك أب مثالي .. كنت أتخيل لو أنك قبضت على عنق أمي لخنقتها .. من الألفاظ التي كانت تخرج منك أحيانا تجاهها .

تبسم حسن وأجاب : يا ولدي .. أنا ابن العائلة .. ونحن قوم نحيا على سمعتنا وشرفنا .. قد نتقاتل على شيء تافه من أجل الكرامة والشرف .. وهي أشياء معنوية .. لكن لها قيمة في نفوسنا .. وأنا لم أسيء لأمك وهي على ذمتي وتحت مسؤوليتي .. راعيت أنها قبلت بي مكرهة مرغمة .. كانت تعاملني باحتقار ؛ كأنني أنا فرضت نفسي عليها .. وكانت تجرح مشاعري بألفاظها المنتقاة.. تفعل ذلك لأغضب وأثور وأطلق .. كانت تنسى أني تزوجتها طاعة للكبار ولحبي للحاج عزام .. فهو الذي اختارني دون أفراد العائلة صهرا له .. فأصبر وأتحمل .. كما نصبر ونتحمل التلاميذ في المدرسة .. في البيت صبر وفي المدرسة صبر ..أمك يا عباس كأس شاي لم تصنعه لي أو تقدمه لي .. كانت الخادمة تصنعه وتقدمه لي أو جدتك أم هدى ـ رحمها الله ـ تقدمه لي .. كانت تجلس معنا على مائدة الطعام خشية وحياء من أبيها .. كنا نعيش كعائلة واحدة .. الخلاصة يا ابني الحياة تجارب ومدرسة عملية .. فأحسن لأمك ديانة مهما أسأت وقصرت في واجباتها .. أحسن إليها ليس لأنها أمك فحسب ، بل لأنها ابنة جدك عزام الذي أحبك كثيرا كأنك ابنه هو ..وفرح لمولدك فرحا كبيرا .. كان معتقدا أن مولدك سيصحح الأمور في البيت ، ويذهب النكد ، ويعيد هدى لصوابها وحياتها المرحة ، وتنسى أحلام اليقظة .. ولما رأى الأمور على غير ما يشتهي .. كتب باسمك الكثير من الأموال .. وأحسن إليها ؛ لأنها كانت زوجة لأبيك .

عادت الأم بعد أيام تطرق الباب ، وأخبرته الخادمة أن المرأة التي جاءت من أيام تريد الدخول وكان عباس تلك الليلة وحده ـ لقد سافر والده من حيث أتى ـ فأذن للخادم بالسماح بدخولها وكان مرتبكا فلبس روب المنزل ، وخرج لاستقبالها ، وكانت تجلس على مقعد في صالة البيت حيث يستقبل الضيوف ، فنهضت تسلم على ابنها ، فسلم عليها ببرود ، وحاولت معانقته فردها ، وقال : تفضلي بالجلوس يا أم عباس ، وجلس قبالتها .

وقالت وهي تجلس مرة أخرى ، وكلها ضيق من برودة الاستقبال: أبوك هنا ؟!

ـ سافر

ـ معي ناس

انتصب قائما وقال : من ؟!

قالت : اجلس .. أخواك

ـ فقط .

ـ وزوجي .. إنه يريد أن يتعرف عليك .

صاح غضبا وضيقا : لست محتاجا لهذه المعرفة .. أستطيع أن أرى أبناءك فقط .. أما زوجك فإني أبغضه للغاية .

ـ إنه زوجي والد إخوتك

ـ أرجوك ! .. أنا أراه وحشا غادرا منافقا خائنا .

ـ والد إخوتك وحش !!

فصاح هائجا : بل هو وغد حقير .

ازداد اضطرابها ، وقالت : ألا ترى أنك تقسو على أمك ؟

رد بكره بين فقال : أمي التي رمتني طفلا .. أهذه أم ؟! ورمت أختي وهي ابنة سنة ، لم تكمل رضاعتها.. أهذه أم ؟!.. هل أنت أم ؟!

ـ اجلس .. إنك تطردني بهذا التجريح

ـ لا أحبك أبدا .. لم أحبك يوما .. هل أنا صادق بعدم حبك أم أمثل وأتصنع ؟.. صورتك في عقلي سيئة سلبية .. أم سيئة .

ـ أعرف أنهم شوهوني لديك ولدى أختك .

ضحك ضحكة قصيرة مغتصبة وقال : الأمر لا يحتاج إلى تشويه .. أنت تخليت عنا من أجل ذلك اللعين .

ـ الأولاد في الشارع ينتظرون الأذن في الدخول

ـ يدخلون إلا فارس الحب ، لا أسمح له بدخول بيتي .

ـ إنه مثل أبيك .

صاح محتدا ومحتجا : مثل أبي! .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. أبي لا مثيل له في الدنيا .. أبي تقارنيه بزوجك الشريف النظيف

قالت بغيظ: سأنصرف إذا لم يدخل بلال زوجي الحبيب

ضحك وقال ساخرا : الحبيب يا له من حبيب ! .. افعلي ما تشائين ، لا يهمني انصرافك .. ليس لديّ عاطفة إليك .. أنت جئت كما زعمت للتتعرفي عليّ .. وها نحن تعارفنا .. ليت هذا التعارف كان في بلدنا وليس هنا

ـ تمنيت ذلك

ـ وما يمنعك ؟ أخائفة من القتل لغسل العار ؟ قومك لا يفعلون ذلك رغم الفعلة التي فعلتيها ..

ـ أتريد محاسبة أمك ؟

ـ لا ، إنما أذكرك بأنك لم تحبيني يوما ؛ لأنني ابن السيد حسن مسلم .. أمي التي كرهت ولادتي ، وتمنت في قرارة نفسها لو أني مت كأخي الذي مات .

ـ ما أقسى قلبك يا عباس !

قال : عجيب أمرك ، أنا قاسي القلب ..!! هل أنا التي تخلت عن أطفالها لتهرب منهم ؟

نهضت قائمة تقول : إلى اللقاء .. بما أنك لا ترغب باستقبال زوجي .. فلا داعي للبقاء هنا .

ـ وأنا لولا وصية أبي باستقبالك لما فتحت لك الباب .. أنا لا أريد أن أعرفك ، لا يمكن نسيان عشرين سنة من الحياة بابتسامة وكلمة .. عشرون سنة قضيتها بغير أم .. دون أم .. لو كانت ميتة لكانت ذكراها طيبة في قلبي .. لكانت رائعة وجميلة في حياتي .. أنا بغضت كل

النساء من أجلك .. رفضت الزواج وهجرته من أجل فعلتك الشنيعة .. فعمري ثلاثون سنة لا زوجة ولا ولد

قالت بشك : بسببي !!

صاح بحدة : نعم ، بسببك كرهت الفتيات

ـ لقد حشى القوم رأسك عليّ .. لم يحدثوك عن الظلم والطغيان اللذين مارسوهما عليّ .. لم يخبروك أنهم فرضوا أباك عليّ زوجا بالقوة والغصب والعدوان

ـ كذب .. وما ذنب حسن ؟!

ـ لماذا لم يرفض أبوك حسن ؟

ـ ولماذا لم ترفضي أنت ؟ هل يعصي حسن والده وعمه حتى لا يتزوجك ؟! وحتى ولو فعل سيأتي أبوك بغيره .. هل يعجز والدك الثري بأن يأت بزوج آخر.. حسن المظلوم ليس أنت .. حسن اجبر على الزواج منك .. وحسن لم يتخل عنا من أجل عيون امرأة حسناء .. حسن رفض الزواج عليك في حياة أبيك ؛ لأنه يحترم ويقدر الأهل العم والأب .. لا تشتكي الظلم تركتينا عند الجدة وهربت .. هربت لحبيبك .. أين الحب لنا ؟

قالت مدافعة عن هربها : أحببت بلالا قبل أن أتعرف على أبيك كزوج

ـ ما ذنب أبي !!

قالت : كان عليه أن يرفض الزواج من فتاة لا تريده .

ـ عدت للرفض ، ولماذا يرفض ؟! ألست ابنة عمه ؟ وأبوك اختاره دون غيره زوجا لك.. وأعطاه الكثير من المال حتى لا يحس بالغبن ..

ـ قصدك اشتراه

ـ والحبيب أخذ الآلاف وتأشيرة الهجرة ..أموال أبيك وخان العهد .. ظل يكتب لك رسائل الهوى والغرام .. أعرف كل شيء يا سيدتي .. ما دام لك محبا لماذا قبل الجبان بالهرب ؟!

ـ اصمت زوجي محترم .. ظل وفيا لي حتى لحقت به .. لم يتزوج من أجلي

ـ إذا أحببت الجلوس والحوار فاصبر في زوجك

ـ على كل حال ها نحن التقينا .. وأنا مسافرة قريبا

ووضعت بطاقة تعريف على منضدة صغيرة وقالت : هذا البطاقة عليها رقم فندقنا وغرفتنا فإذا أحببت التعرف علينا جميعنا فاتصل بنا ، ومشت إلى الباب ، وهي تتوقع أن يضعف ويدعوها للعودة وإدخال أولادها وزوجها ، ولما وصلت للباب الخارجي للشقة سمعته يقول : مع السلامة .. لا يشرفني التعرف على هذا الرجل ، ولا أرى صورته

نظرت إليه وقالت بنبرة غاضبة ومتوسلة : عباس

قابلها بنظرة حادة وقال : هذا ما عندي!

لم يشعر بعاطفة قوية وحب وحنان نحو أمه ، بل شعر بنفور وجفاء نحوها ، وإن كان في قرارة نفسه يتمنى اللقاء بها ورؤيتها ، ولما حصل ذلك لم يسعد به ، كان حائرا مرتبكا .

لما انصرفت تلك الليلة لم يحاول أن يتصل بها على ورقة الفندق التي تركتها على المنضدة الصغيرة ، بل لم ينظر لتلك البطاقة ، وكان يقول لنفسه بعد رحليها " لو كان أي رجل غير صديقها تزوجت به .. لربما عذرتها ، وقلت حقها أن تكره أبي ، ومن حقها الزواج .. أما أن تهرب لذاك اللعين .. فهذا إجرام في نظري .. لقد أسأت لرسالة الأمومة أهم رسالة للأم .. كيف تريد مني أن أصافح الرجل الذي أسأ إليّ ولمريم ؟ .. الحمد لله أن مريم لم تحضر مع أبي لن أتصل بها .. لو فعلت ذلك لفرضت عليّ مقابلة زوجها "

اتصلت هي به وقالت : يا ابني أنا أمك .. أمك رغم كل شيء

ـ أنا أعترف بأنك أمي .. أمي التي حملت بي رغم أنفها.. تسعة شهور .. حملتني على مضض الأم التي تحدثت مع طبيبها عن الإجهاض .. وأنك حملت بي كرها .. لقد تحدث طبيبك مرة أمامي .. تحدث صدفة لحسن وهو لا يعرف أنني ابنك عندما تكلم .. تحدث أنك طلبت منه

إجهاضك ، وأنك لا ترغبين بالحمل والولادة .. هو قال ذلك على سبيل الذكريات ..

صاحت على الهاتف غضبا : من أخبرك بذلك ؟!

ـ ألم أقل لك حضرة الطبيب تحدث بهذه الرغبة لحسن أبي وأنا بينهم .. كنت على معرض الإجهاض .. لكنه خشي غضب والدك ..والقانون

ـ ذكرت له ذلك على سبيل المزح والتذمر .. وإلا هناك عشرات الأطباء يجرون عملية الإجهاض ، ولا يسألون عن قانون ولا عن دين

ـ هذا الآن ليس مهما .. ماذا تريدين ؟

قالت : ألا تريد أن تودعني ؟ .. الليلة مسافر لبلدي

قال: بلدك !

ـ آ بلدي .. لقد تجنست بجنسية كندا منذ سنوات .. ألا تفكر بلقائي لوداعي ؟

ـ ليتني أستطيع .. لا أريد رؤية ذاك الرجل .. لقد كرهته أشد الكره والبغض .. لقد دمر كياني لقضاء شهوته .

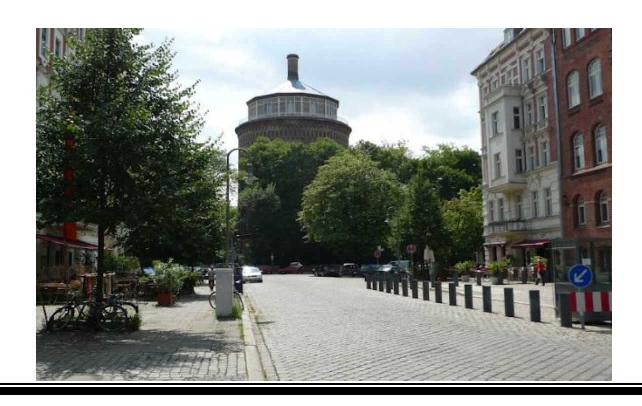
قالت : قاسي القلب .. ذللت نفسي إليك ، وجئت بهم من كندا لنفتح صفحة جديدة في حياتنا .. وتلقى أخويك .. أهذه تربية حسن ؟

ضحك باستخفاف وقال : لا تذكري أبي بسوء .. فحسن خير الرجال .. حسن هو أبي الحبيب .. ورافقتك السلامة .. ولست بحاجة لفتح صفحة جديدة مع زوجك .. أمي الجرح الذي تركتيه في قلبي عميق .. كانت طعنة في القلب .. لا يمكن أن أنسى تلك الصورة وأنت تلوحين بيدك لنا من سيارة التاكسي .. لليوم لم أنس ذلك المشهد .. ولو كنت محبة لنا كما تزعمين اليوم .. لاتصلت بنا .. كتبت لنا .. زرتنا في سنوات ماضيات .. لكتبتي لهم معتذرة أنك أخطأت بفعلتك تلك .. ودعوت عريس الهنا ليخطبك من أهلك .. أما زواج بدون شهود وولي أهذا نكاح شرعي ؟

قاطعته غاضبة وقالت : مع السلامة يا عباس

ووضعت السماعة ، فسكت عباس ، وقال لنفسه : من المجرم منا ؟!

واستدعى الخادم ، وسألها كوب قهوة شرابه المفضل .. ومشى لمكتبه في الشقة وقال بصوت مسموع : لماذا جاءت ألمانيا ؟! هل حقا لتراني ؟ لتراني بعد كل هذه السنوات الطوال ..هل هذه أم تحب ؟ .. تزوجت مريم ولم تفكر بحضور زواجها أو حتى الاتصال بها لتبارك لها .. وحتى لم تسألني عنها بسؤال واحد .. أينا المجرم أيها الناس ؟



عشاء

كانت مريم ويوسف في زيارة للدكتور عباس العائد من ألمانيا محققا الاختصاص في جراحة القلب وجراحة الدماغ في بعثة خاصة على حساب طب الجيش ، ولما وصل البلاد رفع لرتبة رائد طبي ..وبعد السلام والمعانقة التقليدية قالت : كيف كانت أمك ؟

ابتسم عباس وقال : كما ترينها في الصورة المعلقة في بيتك .. ما الذي ذكرك بها ؟ للأسف إنها يا دكتور يوسف لم تسأل سؤالا واحدا عن مريم .. أنا أتعجب من هذه الأم !

قالت مريم : المهم أنك قابلتها ورأيتها وسمعت صوتها .

قال آسفا: زادتني عذابا يا مريم .. لقد أعادت أشجانا لقلبي كنت نسيتها مع الأيام .. ومنذ قابلتها رغم أنفي وأنا لا أدري لماذا جاءت لألمانيا؟!

تنهدت مريم وقد دمعت عيناها أو ترقق فيهما الدمع ، وقالت : كم أنا بحاجة لرؤية هذه الأم يا يوسف .. لأعرف لماذا رمتنا وهربت ؟! لقد حرمتنا الأمومة وقول هذه الكلمة " أمي"

فقال عباس : لماذا الحزن والأسف ؟ فقد تعودنا على خروجها من حياتنا .. عمر ومضى .. الأيام التي ذهبت لن تعود .. فلما تقابلنا لم أحاول ضمها لصدري .. لا أستطيع يا يوسف .. كان بيننا جبل هائل .. وفي المرة الثانية سعت لذلك فلم تسمح نفسي بذلك .. حاولت أن أرغم نفسي على استقبالها وزوجها .. لم أستطع تقبل مقابلته ومصافحته .. لو تزوجت رجلا غيره لكان الأمر مقبولا ومتقبلا يا مريم .. لكن تتخلى عنا وتهرب لرجل عرفته في الجامعة ، ورفضه والدها كان هذا سيئا وجهلا كبيرا .. كانت قاسية على طفولنا

قالت مريم : ستبقى أمنا يا عباس .. أمي .. أمي .. ما أجمل وأحلى هذه الكلمة يا عباس!

وقضى الضيفان وقتا مع الدكتور عباس حسن ، وكان جل حديثهم عن الأم ثم الدراسة .. وفي آخر اللقاء كاشفه يوسف بسعيه للسفر القريب إلى إحدى دول الخليج العربي للعمل هو ومريم .

وكان عباس لما علم بزيارتهم تحادث مع أحد المطاعم ، وطلب منه إعداد عشاء له ولضيوفه .. لذلك انتقلوا إلى حجرة الطعام فور وصول سيارة المطعم، وانشغلوا بالطعام والمداعبة لبعضهم بالنكت حول الأكل الشرقي والألماني ، وبعد السهرة غادر الضيفان جناح الدكتور عباس في قصر جده عزام .

وقبل أن يخلع ملابسه الرسمية ويلبس ملابس النوم رن هاتف الشقة ، وكان المتصل والده حسن الذي اعتذر عن مشاركتهم الطعام لظرف خاص به ، وكان الرجل راغبا بالحديث مع مريم قبل انصرافها ، فأخبره عباس بانصرافهم ، وذكر له تعاقدهم للعمل في السعودية العربية في مستشفى خاص في مدينة جدة أو الرياض .

وكان عباس يستعد للرحيل إلى فيلته الجديدة التي أنشاها له والده عندما اقتربت عودته من ألمانيا بناء على رغبة عباس على ترك القصر .. وأصر على بنائها والانتقال من بيت جده عزام .. وقبل أن ينام تحدث مع الخادم الفلبيني وزوجته عن ترتيبات البيت الجديد ، وما يلزمهم من أثاث خاص بهم .. وكاشفه الخادم بمرض زوجته ، وأنها ستعود للبلاد لتموت عند أولادها ، وأن أخته ستقوم بالعمل معه في بيته .. فطلب عباس منه إيقاظه عند صلاة الفجر كالعادة



بعد عودة عباس بأسابيع يسيرة سافر يوسف وقرينته مريم للعمل في دولة العربية السعودية وهي إحدى بلدان الخليج العربي ، بل أكبرها مساحة وسكانا ، وكان عمله في شرق البلاد حيث الخليج العربي ، واستقر طبيبا في أحد مشافي مدينة الرياض ، وفي نفس المكان عملت زوجته .

رغم مرور الأيام والسنين ما زال عباس يرفض الزواج ، وأبدع في عمله ، وأصبح اسمه يبرز

في الجراحة سواء في الدماغ وأمراضه أم القلب وعملياته ، واستغرقت الحياة العملية كل وقته ونشاطه ، ووجدت روحه الانسجام من خلال العمل .

كانت تأتيه مراسلات من قبل أمه في المناسبات تطلب منه بعد التهنئة السعي للقاء فلا يرد عليها ، ولا يعيرها أدنى اهتمام .

كان والده حسن قد علم ودرس إخوته وزوجهم ذكورا وإناثا ، وظل صاحبنا راغبا بحياة العزوبية ويرفض دعوات والده لذلك . فكانت العائلة الكبيرة تتعجب من تركه للزواج وزهده فيه ، وقد قارب الأربعين عاما ، ومات والده حسن ، وكان يموت وهو يدعوه للزواج وهو مشفق عليه أن يغادر الدنيا بدون ذرية .

أم عباس المهاجرة كانت تتعذب من داخلها من عدم زواجه لذلك التاريخ ، وجعلها السبب في ذلك ـ كما أخبرها في لقاء ألمانيا ـ كما كتبت له في مناسبة عيد ، فعقب لنفسه : لو أنك أم صالحة ما هربت من أجل الزواج .. فأنا كرهت هذه العلاقة منك وبسببك .. تهجرين أولادك الأطفال من أجل الزواج .

وبالطبع لم يكتب لها ، بل جاءته رسالة تطلب منه المساعدة في علاج قلب زوجها الذي عاد لأرض الوطن للعلاج في مركز علاج القلب العسكري ، ولما سعى أحد أقرباء الزوج لذلك معرفا له بنفسه ، اعتذر عن الإشراف على شقيقه الذي هو زوج أمه ، بل أخذ إجازة لزيارة السعودية حيث شقيقته مريم وزوجها يوسف ابن عمه ، ومن هناك ذهب لأداء فريضة الحج والعمرة بصحبتهما .

ولما عاد للبلد ، ووجد أن أمه جاءت تبحث عنه ، وتتابع علاج زوجها أخذ إجازة لمدة سنة ، فرّ فيها لأوروبا ، واستغلها في المزيد من الدورات التدريبية في مشافي ألمانيا حيث كوّن صداقات مع عدد مهم من جراحي القلب الألمان حيث تعلم جراحة الدماغ والقلب .

ورغم الرسائل التي وصلته من استياء أمه منه ، ومن هربه من اللقاء بها ، لم يكترث لها ، وأصر

على الهرب والبعد عنها ، حتى نقل له أحد الأطباء الأصدقاء موت زوج أمه ، فلم يكتب لها تعزية ، ولم يتصل بها .

لما انتهت السنة عاد للبلد من جديد ، وعاد لعمله في المستشفى العسكري الخاص بجراحة القلب ، وكان يمارس عمليات جراحة الدماغ في مستشفى آخر تابع للقوات المسلحة العربية .

كانت قصة أمه تشكل له عقدة ، كان يرى تخليها عنه طفلا جريمة كبيرة في حقه ، كان يرى هربها مصيبة كبيرة حلت به ، لم يستوعب أن تتخلى أمه عنه من أجل الزواج من رجل لا يرغب فيه والدها ، لذلك قبل بالهروب حتى لا يرى هذا الرجل الذي نكح أمه ، ورفض النكاح بسبب هذه العقدة ، فكان يرى بمنظاره الأسود .

ولما مات زوجها رفض التعزية فيه ، ولم يقبل رؤية إخوته منها ، ولم يقبل التعرف عليهم عندما جاءوا ألمانيا ، وكذلك عندما جاءوا البلد لمتابعة علاج أبيهم المريض بالقلب ، والذي أحب الموت في وطنه ، وحتى أنه طلب اللقاء بعباس من أجل المسامحة ، فأخبر الرجل أن ابن زوجته خرج من البلاد .

وحتى أن مريم كانت متعاطفة معه لما علمت بتلك المعلومة ، وكانت تستغرب من عدم سعي أمها للقاء بها بقدر ما كانت ملهوفة للقاء عباس المتعصب ضدها ، ولكنها راسلت ببرقية عزاء لأمها بضغط من يوسف ، والعائلة بشكل عام كانت تعامل هدى بقسوة وتجاهل ، فعمها منذ غادرت البلاد لم يحدث بينهما اتصال ، وكذلك أبناء عمها كانت سيئة عندهم ، واعتبروها خائنة للأسرة وللحاج عزام .



دخل عليه أخوه محمد حسن مكتبه في المستشفى يوما ، وقد أصبح مديرا لقسم جراحة

الدماغ والأعصاب وقال : اسمع يا عباس ، لقد تلقينا رسالة من أخيك داود يخبرنا أن أمك عادت للبلد ، وأدخلت مستشفى الأمراض العقلية ، فقد تعرضت لحادث سير في كندا ، وشفيت بدنيا ، ولم تشف عقليا ودماغيا .. والرجل يترجاك أن تقابل أمك وتهتم بها .

فرد عباس بحنق : يا محمد ليس لي أم ..

ـ العقوق يا ابن أبي !

قال بضيقه : هي بدأت بالعقوق .. ولليوم قصتها مخزية لي ، وأتجنب وأتحاشى الجلوس مع أبناء العائلة حتى لا يتكلم أحد بسيرتها وجرمها .. أبيت الزواج ، وغضب الوالد مني ، ومات حزينا من أجلي يا محمد .. فأنا اعتبرت نفسي بغير أم منذ هربت لعشيقها وصديقها .

ـ يا عباس هذا الكلام لا يصح في حقها .. نحن كبرنا .. كل الناس تخطيء وتعود ..

تنهد عميقا وقال : مات أبوها ساخطا عليها ، ومات عمي وهو مبغض لخيانتها .. المستشفى لا يخلو من أطباء كبار أفهم مني وأفضل مني ..

ـ السنون ألم تشفِ الجرح ؟

ـ كم هي متلهفة للقائي كما تزعم وتنشر ؟.. فلم تفكر بلقاء مريم ولو لدقائق .. أهذه أم يا محمد حسن ؟! .. يا رجل تترك مريم رضيعة لتتزوج من رجل ! .. أخطأت في حقنا فعليها أن تتحمل عاقبة كرهنا وبغضنا ، أنا لا أنسى زيارتها لألمانيا لتراني زاعمة أنها تخشى المجيء إلى هنا حتى لا تقتل .. أبوها هو الذي أعطى زوجها المال ، وسهل له الهجرة ؛ ليبتعد عنها ، وظلت خائنة لأبيها ولزوجها ويتراسلان .. الجرح عميق لن أقابلها ، فقل لمن يسمون أخوة لي هذا الكلام .. فلست بحاجة لمعرفتهم ، وهم ليسوا بحاجة لمعرفتي ، وها قد عشنا كل هذه السنوات بدون أن نلتقي ونتقابل .

فقال محمد بيأس من تغيير لقناعات عباس : ولا أمل بتغير الأفكار عندك

ـ القضية ليست قضية أمل.. القضية أنني لم أحبها، واعتبرت ما فعلته بي وبأختي مريم وبأبي

وبالعائلة شيء كبير لا يتسامح .. فهي لها أقارب زوج ، ولها أولاد من الحبيب الذي هربت من أجله فليهتموا بها هم .. وأقول شفاها الله من سقمها .

ـ ليس أمامي إلا أن أقول لا حول ولا قوة إلا بالله .. وسأكتب للرجل وأخيه بهذه المعاني .. كان والدنا يحب أن تصفح عنها وتنسى ، ولو تحسنت علاقتك بها يا عباس لتحسنت علاقتها بشقيقتك مريم ، ربما هي كانت تريد أن تساوم بورقة مريم

قال ممتعضا : لا أعتقد هذا .. هي تكره مريم أكثر مني ، وتعرف أنها ولدتنا غصبا عنها ، وتعرف أنها تخلت عنها صغيرة يا محمد بنت شهور قريب من العام .. هي أجرمت في حقنا من أجل رجل .. أنا آسف يا محمد لعدم إبداء أي مرونة نحوها ؛ لأنني حسمت أمري من علاقتي بها

نهض محمد وقال وهو يمد يده مصافحا : إنها الأم

اغتصب ابتسامة خاطفة وقال : أي أم يا رجل ؟ لا اعتبرها أما البتة .. الدابة وهي عجماء غير عاقلة لا تتخلى عن أولادها الصغار مع الخطر المحدق بها وبهم .

ـ أنت رهيب ..وأعصابك شديدة .. إن أمي تبكي من أجلكما .

قال عباس : أمك عاطفتها أكثر من اللازم يا محمد .. حتى لو فكرت بزيارتها ومتابعتها إنما هي دقائق .. لن أطيق أن تعيش معي.. فلتبق مع أولاد الشهد أولاد صديق الجامعة

ـ وأنا أعتقد أنها لا تريد منك أكثر من ذلك .. فأخواك رغم عملهم في الغرب ، فهم متعلمون فأحدهم يعمل مديرا لشركة كان قد أنشاها والده لما استقر في كندا ، والآخر شريكه ، وكلاهما ـ كما فهمت من أحد أعمامهما ـ تخرج من الجامعة .

قال : ولماذا تركت العلاج هناك ؟! وأنت تعلم كم رقي الطب في الغرب وكندا خاصة !.. الطب لا يقارن ببلاد العرب .

ـ أنا لم ألتقِ بهما كما تعلم ، وقلت إنما التقيت ببعض الأعمام أيام مرض زوجها بظروف خاصة

وهم يقرون بأن شقيقهم تصرف تصرفا ولدانيا بعلاقته بالسيدة هدى عزام ، فما دام قد قبل السفر والآلاف التي دفعها الحاج عزام كان عليه أن ينسى امرأة أو فتاة اسمها هدى .. المهم هذا حديث طويل .

وصافحه ثانية وقال : سامحني يا عباس .. هل ستسافر للسعودية كما سمعت ؟

ـ أنا أحب مريم كما تعلم ، ولا أحب حزنها ، وهي سقيمة ، وأولادها يرغبون برؤية خالهم.



سافر عباس إلى الرياض ملبيا نداء شقيقته ، ووجدها تعاني من جديد من مرض ضربها وهي صغيرة دون العشرين ، وقد اجتازته بصعوبة ونجت منه ، وها هو يعود إليها ، ووقع في قلبه أن نهايتها قد حانت .

ويعرف هذا المرض بداء الذئبة الحمامية ، وهو سقم يصيب الجهاز المناعي بالدم ، ويظهر في فترة البلوغ ، ويصيب النساء بنسبة أكبر من الرجال . طبيا لا يزال سبب الذئبة الحمراء غير معروف إلا أنه مرض من أمراض اضطراب الجهاز المناعي، ويعرف اختصارا بمرض الذئبة، يعمل هذا المرض على مهاجمة الأنسجة الضامة في الجسم كما لو كانت غريبة، مما يؤدي إلى إصابة أو تدمير أعضاء حيوية كالكلى والمفاصل والدماغ والقلب.

لا يعتبر مرض الذئبة الحمراء من الأمراض الوراثية إذ أنه لا ينتقل وراثيا من الآباء إلى الأبناء إلا أنه من الممكن وراثة بعض الجينات التي تحمل خصائص المرض فتزداد نسبة احتمال الإصابة به.

وربما حدوث اضطراب الهرمونات عند البلوغ أو التعرض لأشعة الشمس أو الإصابة ببعض الفيروسات أو تناول بعض الأدوية من أشهر العوامل التي تؤدى إلى الإصابة بالمرض.

ويصيب ذوي البشرة الداكنة أكثر مما يصيب البيض أو ذوي البشرة الفاتحة بمعدل ثلاث مرات تقريبا، وتكون الغالبية العظمى المصابة من النساء في سن الإخصاب (بين الخامسة عشرة والخامسة والأربعين من العمر) ؛ ولكن في الأطفال وقبل سن البلوغ تكون نسبة المرض في الذكور أكثر من الإناث.

هنالك عدة أنواع من مرض الذئبة الحمراء، منها الجلدي، ومنها الدوائي ومنها النوع الجهازي الشامل لجميع أعضاء الجسم أو بعض منها مع إصابة الجلد أو من دونه، وهو النوع الأكثر انتشاراً.. وكثيرون يعيشون حياة شبه طبيعية رغم وجود الأعراض المزمنة.

تتفاوت أعراض المرض بدرجة كبيرة تبعاً لنوع الأنسجة المصابة ودرجة إصابتها، وعادة ما تكون الأعراض الأولية المبكرة للمرض أعراضاً عامة كالحمى والإعياء والآلام الجسدية وفقدان الشهية ونقصان الوزن والغثيان والشعور بالتوعك، ومع مضي الوقت تبدأ الأعراض المميزة أو المتخصصة للمرض بالبروز ، وتكون نتيجة إصابة أعضاء متعددة من الجسم مثل الجلد والذي يكون في صورة طفح جلدي ، حساسية غير طبيعية لأشعة الشمس حتى بعض التعرض المحدود لها ، ويصاب آخرون بقروح في الفم والأنف وتقرحات جلدية تشبه قطع النقود ، قد تثار أعراض الذئبة في أي وقت ، وتندلع هذه الأعراض غالبا جراء التعرض للأشعة الفوق بنفسجية الصادرة من الشمس، أو نتيجة التعرض لضغوط عاطفية ونفسية، أو الإعياء أو عوامل أخرى.

أكثر مضاعفات الذئبة خطورة تلك التي تشمل ما يقوم به جهاز المناعة من تدمير لأعضاء رئيسية بالجسم كالكلى ، أو الرئتين مسببة التهاباً لبطانة أو غشاء الرئتين، أو تصيب صمامات القلب أو عضلة القلب ذاتها مما يؤدي إلى حدوث هبوط في القلب.

ولما كان الحمل يزيد من حدة المرض فينصح الأطباء مريضات الذئبة الحمراء باستشارة طبيب الروماتيزم قبل الحمل لعدة أسباب منها أن يقرر الطبيب السماح للمريضة بالحمل أم لا في

هذه المرحلة، ولعمل الاحتياطات اللازمة قبل السماح بالحمل ، لا يوجد علاج ناجع وجذري للمرض ، وعندما يتم تشخيص مرض الذئبة الحمراء يكون المرض غالباً في أشد مراحل نشاطه، وفي هذه المرحلة يحتاج الطبيب إلى استخدام كمية كبيرة من الأدوية للسيطرة على المرض ومنع تلف الأعضاء، وفي معظم الحالات يكون العلاج ناجحاً ، وتتم السيطرة على المرض الذي يبدأ نشاطه في التراجع، ويتم سحب الأدوية تدريجياً حتى يحتاج المريض إلى جرعات قليلة ، أو قد يتم الاستغناء عن العلاج تماماً.

فتقليل التوتر والموازنة بين الراحة والمجهود وتناول الطعام الصحي والدعم العائلي مما يساعد كثيراً على مواجهة المرض.

وسمعت أن من اجتاز خطر هذا المرض في سنته الأولى قد ينجو من مضاعفاته والموت ، وخطره يكمن في إضعافه أجهزة حيوية في بدن الكائن الحي ، وقد مر ذكرها ، والله هو وحده الشافي حقيقة من كل سقم ، كما جاء حكاية عن سيدنا إبراهيم في قوله تعالى {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠]

أصيبت مريم حسن بهذا الداء الخطير وهي دون العشرين من سني عمرها ، وشفيت منه ، وتحسنت حالها ، والتحقت بكلية الطب تأثرا بهذا البلاء ، واليوم يبدو لهم أنه كمن في بدنها كل هذه السنوات ، ثم جدد نشاطه عندما اقتربت من الأربعين ، وقد ولدت ثلاث مرات بعد زواجها من ابن عمها يوسف ؛ لذلك لما رآها عباس ، واطلع على تقارير الأطباء ، وتقارير الفحوص الطبية أدرك أن المرض قطع شوطا حادا في التأثير على القلب والكلى .

قضى عباس عشرة أيام عند ابن عمه وأخته ، ورأى المعاناة التي يعيشون فيها ، وأعلمه يوسف بأنه بعد تحسن صحة مريم سيقدم استقالته من المستشفى ويعودان للبلد ، فلم تعد حالة مريم السقمية تتحمل البقاء في الرياض .

زيارة الأم

لما رجع عباس من الرياض علم أن أخوته من أبيه زاروا أمه ، فلزم الصمت ، وتكلمت معه أخته راضية ـ وهي طبيبة أسنان ـ قائلة : عباس أمك تموت ، فاحصل على رضاها ، واغفر لها ماضيها .. فهي فاقدة القدرة العقلية ، فلديها اعتلال دماغي ، وسبب لها تلفا بالدماغ ، وستعيش معاقة إلى حد ما ، وهذا اختصاصك ، وليس لها إلا أنت .. أخوتك لن يأتوا من كندا للحياة هنا ، فحياتهم هناك ، وهم متزوجون من كنديات ..ورزقهم وتجارتهم هناك .. فوسع قلبك .. وأهل زوجها غير مكترثين .. هم مجرد زائرين وسيتلاشون مع الزمن ، سيملوا لا يربطهم بها شيء ، فبلال وقد مات ، والاولاد هناك .

صفن فيها للحظات ثم قال : ماذا يمكن أن أفعل لها غير ما يقدمه لها الأطباء الآخرون ؟ .. ولماذا لم تبق معهم للعلاج ؟ وأنت طبيبة وتعرفين تقدم الطب في كندا .

ـ عزيزي عباس .. هي تريد عطفا وحنانا .. إنها تردد اسمك .

قال وهو سارح في أفكاره وخياله : تردد اسمي .. ألم تتخل عنا يا أخت راضية ؟ ونحن بحاجة إلى عطفها وحنانها ، ألم تجبر أبي على طلاقها ؟ وخالف وصية والدها ورضخ لضغط العائلة وطلقها ، ولما طلقت هربت خفية .. وذاك الرجل غدر بجدي عزام ـ رحمه الله ـ وأخذ المال على أن يعيش في الغربة .. إنها بكل المقاييس أسأت لنا لي ولمريم وجدي والدها وأبي والعائلة الكبيرة .. كيف يصفو قلبي لها يا راضية ؟

ـ هذا شأنك يا أخي .. وهذه مشاعرك ؛ لكن كلمها زرها كما يفعل الغرباء.. هل ستبقى في مستشفى الأمراض العقلية ؟ أولئك يدفعون للمستشفى يدفعون ثمن الأدوية والإقامة .. وسيتوقفون .. أترى أيقبل جدك عزام أن تعيش ابنته في هكذا مكان ؟

قال : أين ستعيش يا راضية ؟ .. إذا تحسنت حالتها ستعيش في دار المسنين .. عندي .. أنا لا أستطيع يا راضية .. أنا عندي عمل ووظيفة .. سيكون عندها ممرضة ، وهناك سيكون

ممرضات وأطباء .. مكانها المستشفى أو دار المسنين

ـ إنها أمك .

ـ أعرف أنها أمي التي تركتني عند خالي وبيت جدتي وهربت لملاقاة حبيبها وتزوجته بدون موافقة أوليائها .. أمي التي ألبستني ثوب العار .. التي بغضت إليّ جنس النساء .. التي كانت ابنة عائلة محترمة .. عائلة تحترم وتقدر العادات الحسنة .. امرأة تتزوج من غير رضا أسرتها أي حب هذا يا راضية ؟

كان يتكلم بانفعال وتوتر فقال أخته : اهدأ يا ابن أبي .. أنا أدرك ما عانيت من ألم وحزن بسببها ؛ ولكنها تظل أمك .

ـ الأم التي لم تسأل عن ابنتها التي تموت اليوم من الحزن والمرض .

قالت بقلق وانزعاج : ما لها مريم ؟

ـ عاد إليها المرض القديم الذئبة ، وقد أثر على قلبها وكليتها فوضعها حرج يا راضية .

ـ لم نسمع

ـ اطلعت على التقارير في زيارتي الأخيرة إليها .. وقد تركت العمل منذ شهور أنهكها الوجع وها هو يوسف ابن عمنا سيقدم الاستقالة ويعود للحياة هنا ..

ـ أحزنتني يا عباس هل يمكن الحديث معها على الهاتف ؟

ـ ترد إذا كانت في البيت ، أما إذا كانت في المستشفى قد لا يسمحون له بالرد

ـ نعود لأمك .

ـ فلتبق أمي حيث هي يا راضية ، وإذا كانت القضية مجرد زيارة فرتبي لي زيارة .

قبلت راضية شقيقها عباس من رأسه وقالت وهي تمسح دمعة : عظيم يا عباس ! أنت أخي بحق !

استحى عباس من كلام وتوبيخ أخته راضية في شأن زيارة أمه ، وخاصة لما علم أنهم قاموا

بزيارتها في مستشفى الأمراض العقلية ، فرتبت السيدة راضية زيارة له إلى أمه بمساعدة زوجها المهندس عيسى سليم وهو قريب لهما ، وصديق أحد الأطباء في ذاك المشفى ، دخلوا إلى غرفتها في المستشفى ، وكانت هدى على علم بزيارة عباس ، وحتى أن المستشفى اهتم بهذه الزيارة ، واستقبل مدير المستشفى بشخصه وعدد من مساعديه الدكتور الأخصائي الكبير عباس ، فهو معروف في الوسط الطبي ، ولأنه ضابط كبير في الخدمات الطبية الخاصة بالجيش ، حتى أن مدير المستشفى استغرب من عدم اهتمامه بقضية أمه وإخضاعها للعلاج في مستشفيات الجيش والعسكر ، ورافقه إلى الغرفة التي ترقد فيها المريضة ، ولما رأته يدخل عليها همت بالنهوض ، ولكن الممرضة منعتها من ذلك فقالت بانفعال واضح : إنه عباس ولدي !

اقترب منها وقال : سلامتك يا أم داود .. أرجو لك السلامة . وصافح اليد التي مدت له وقال : كيف حالك ؟

ـ أما زلت غاضبا على أمك يا عباس ؟

التفت عباس لطبيب ومدير المستشفى الذي أحس أن في الجو شيئا غريبا وقال في اعتذار : أتسمح لي بالمغادرة يا دكتور عباس ؟

ـ لا بأس ، سأشرح لك الموقف الغريب قبل مغادرة المستشفى

ـ أنا آسف يا دكتور .

سلمت راضية على أم عباس، وقبلت خديها ودعت لها بالسلامة ، وسلم عيسى سليم عليها ورحبت بهم المرأة ، ولما انصرف مدير المستشفى غادرت الممرضة المريضة بإشارة منه ، وقالت هدى : الله يغفر الذنوب يا عباس .. ألا تغفر لأمك ؟

ـ القضية ليست قضية مغفرة .. يا أم داود .. القضية أكبر من ذلك .. أنت سلكت دربا وأنا سلكت دربا .. لقد تركتينني من أجل رجل هويته .. وهل هذا فعل يحتاج لمغفرة ؟ أنت

رميتنا .. وإذا كانت مثل هذه الزيارات تحل الإشكال فسأكرر الزيارة .. نحن التقينا كالأغراب في المانيا من سنوات خلت .. لكن الحياة مع بعض فهذا شاق على قلبي .. لقد كللتيني بالعار أمام أبناء العائلة يا أم داود

ـ أنا لا أريد من الدنيا إلا أن أراك.. أمعن النظر فيك .. أنت الابن الأول يا عباس ، رغم كرهي الشديد لأبيك أحببتك .. ورضعت من صدري يا عباس ..لا أريد الحياة معك .. بس أن أراك .. أنا أخطأت في حقك .. حكمت الهوى بيننا .

فقال بجفاء : حسنا ، سأخصص لك زيارة في الشهر الواحد لزمن محدود .. أنا لا يمكن أن أنسى الألم المستمر في قلبي وبدني منك .. وها هي ابنتك مريم ستعود للبلد ، وقد لا تعيش طويلا .. لماذا أنت لم تسع للقاء بها ؟ لماذا ؟!

هتفت : لا أحبها ، لا أحن إليها .. ما أحببتها .. لا أدري سبب ذلك !

ـ أليست شقيقتي ؟ أتحسين بالندم لأنك تركتيها رضيعة ؟

ـ لا أدري ..

ـ ولماذا تسعين إليّ ؟ قالت: لا أدري!

ـ حسنا يا أم داود سترتب لنا راضية أخت مريم موعد زياراتي لك .. وضعك الصحي مقبول وربما مع الوقت تتمكنين من العيش حياة طبيعية .. وسيتابعك فريق من أهل الاختصاص .. ولكنهم قد يتابعون علاجك في بيت المسنين ؛ لأن أكثره سيكون علاجا طبيعيا ونفسيا .. وحياتك في بيت صعب عليك .. وداود وأخوه يحيى على اتصال دائم بالمستشفى لمتابعة العلاج ودفع التكاليف ، وهم يدفعون من مالك ليس كرما منهم .

أخذتها موجة من البكاء وهي ترى عباسا ينصرف من الحجرة ، وهو خرج منقبض النفس والروح ويعجب من تعلقها به وكرهها لمريم .. أم هو تأنيب ضمير لتخليها عنها صغيرة ، فهي عاجزة من اللقاء بها .. لقد عقدت حياتها بتصرفها الأرعن .

تلف الدماغ

كان عباس قد مشى لبيت شقيقته مريم التي عادت إلى أرض الوطن وهي في غاية الإنهاك والضعف بسبب مرضها الذي عرفه القارئ وعرفناك بخطره ، وأخذت تتابع العلاج وجلساته في مشافي المدينة ، بل أخذ عباس يقدم أوراقها للمعالجة في مشافي الجيش ، وتيسر ذلك سريعا لعلاقات عباس القوية بمؤسسات الجيش والقوات العسكرية ، وكان هو يتابع بنفسه الإشراف على علة القلب .

رحبت مريم بعباس كعادتها ، وكان الحديث عن صحتها وحالتها المرضية ، فكان يقول مشجعا : عليك أن لا تستسلمي للضعف ، وليبق عندك حبا قويا للحياة .. واعلمي أن الأعمار بيد الله ، وليست بيد المرض .. وهذا الداء يمكن التعايش معه كما يتعايش مريض السكر والسرطان مع مرضه .. ويحيا العشرات والمئات وهم يعانون مع مرض القلب .

ـ أشكرك يا عباس أنت الباقي لي في هذه الدنيا .

قال : كلنا لك .. يوسف وأولادك وأولاد أبي .. فهم محبون لك ، ويتعاطفون معك كلنا أخوة وأهل .

ـ كيف أمنا يا عباس ؟

ـ مرضها صعب ، ربما أصعب مما أصابك .. وسنها لا تساعد على المقاومة ، والأطباء يقومون بواجبهم ، وهي ترقد في دار رعاية المرضى والكبار في السن " قصر الوفاء لرعاية المرضى والمسنين " يطلقون عليه هذا الاسم ، هو مكان جيد يجمع بين فندق ومستشفى وحديقة ؛ لأن حياتها في بيت خاص يحتاج إلى خدم وممرضات ورعاية خاصة.

بعد لحظات صمت قالت : أريد أن أقابلها يا عباس .. رغم مرور كل هذه السنوات من الجفاء والبعد .. وعدم سؤالها عني .

ـ عند زيارتي لها في المرة الآتية سنذهب سوية .. لقد سألت عنك المرة الماضية ، وكأني نسيت

أن أقول لك ، ولقد دهشت ، .. وربما لأنني كررت زيارتي لها تذكرت أن لها ابنة أيضا

وبعد سكوت ضئيل تابع فقال : أنا حقيقة أستغرب من عدم اهتمامها بك !

قالت معللة مفسرة : إنها تخشى من مقابلتي لها .. أمر نفسي .. فهي تخلت عني طفلة أكثر منك ربما تأنيب الضمير كما يقال .

هزّ رأسه وابتسم وقال : لا أعتقد أن لأمنا ضميرا .. من يتصرف مثلها لا ضمير عنده

ـ أنت تقسو عليها يا عباس

ـ أم تهجر طفليها لغير سبب مهم أيكون لديها ضمير ؟!

ـ الحياة همومها وأحوالها عجيبة .. وكما تقول راضية ستبقى أمنا ، وهي تقول علينا أن نستأجر لها بيتا خاصا .. من المعيب لنا أن نتركها في دار رعاية المرضى .. وهي تلوح بأنها ستفعل ذلك بنفسها .. فهذا معيب لكل العائلة ، فإذا تخلى عنها أبناء الحبيب ، فعلينا أن نقف معها من أجل خاطر المرحوم جدنا الحاج عزام .. تقول راضية : لو كان والدنا حسن حيا ما قبل بهذا الفعل .

فقال متضايقا مما سمع : ما أشد كلام راضية على القلب! .. ماذا سنفعل لها في البيت ؟ إنها مريضة دماغيا ، وتحتاج إلى مراقبة وعلاج طبيعي دائم .. وأخذ يتذكر مرض تلف الدماغ علميا .. فهو جراح دماغ كما نعلم.

تلف الدماغ هو تدمير خلايا المخ أو تدهورها ، تحدث إصابات الدماغ نتيجة لمجموعة كبيرة من العوامل الداخلية والخارجية ، وهناك إصابة الدماغ الرضية التي تتبع الصدمات الجسدية أو إصابة في الرأس من مصدر خارجي ، ينتج عن إصابات الدماغ في كثير من الأحيان ضعف أو إعاقة تتباين بشكل كبير في شدتها ، في حالات إصابات الدماغ الخطيرة ، يوجد احتمال كبير بحدوث إعاقة دائمة في بعض مناطق الجسم ، بما في ذلك العجز العصبي ، أو مشاكل في الحركة والكلام ، والتخلف العقلي، كما سينتج عنها أيضًا تغيرات في شخصية

المريض ، ينتج عن الحالات الأكثر شدة غيبوبة أو حالة أنباتية مستديمة ، حتى الحوادث الخفيفة يمكن أن يكون لها آثار على المدى الطويل أو أن تسبب أعراضًا تظهر بعد سنوات.

يمكن لإصابات الدماغ سواء الناجمة عن السكتة الدماغية، أو إدمان الكحول، أو إصابة الدماغ الرضية، أو نقص فيتامين ب أن تؤدي في بعض الأحيان إلى ذهان كورساكوف ، حيث يُصاب الفرد بهذيان الأراجيف بمعنى ينطوي هذيان الأراجيف على عدم القدرة على فصل ذاكرة أحلام اليقظة عن الذاكرة الحقيقية .

قد تنخرط عدة مهن في الرعاية الطبية وإعادة التأهيل للشخص الذي يعاني من ضعف بعد إصابة الدماغ ، أخصائيي الأعصاب ، وجراحي الأعصاب ، وأخصائيي العلاج الطبيعي وإعادة التأهيل ، وأخصائي علم النفس العصبي ، ويمكنهم المشاركة في تقييم مدى شدة الإصابة أو عمل استراتيجيات إعادة التأهيل، يمكن أن يشارك المعالجون المهنيون في إدارة برامج إعادة التأهيل للمساعدة في استعادة الوظائف المفقودة أو المساعدة في إعادة تعلم المهارات الأساسية .

يلعب أخصائي العلاج الطبيعي أيضا دورًا هاما في إعادة التأهيل بعد إصابة الدماغ ، وتشتمل العلاجات الأخرى لإصابات الدماغ على الأدوية ، والعلاج النفسي، وإعادة التأهيل العصبية ، وتعتمد العلاجات على مكان تلف الدماغ، وطبيعته وسببه .



مريم وهدى

بعد مغادرته مكان عمله ، التقى بمريم وزوجها يوسف في صالة استقبال الزوار في دار رعاية المرضى التي تديرها شركة خاصة فهي مؤسسة خاصة ، فبعد التحية والسلام مشى أمامهم طبيب مقيم في الدار " قصر الوفاء" لزيارة هدى عزام ، والطبيب المشرف هو طبيب نفسي ، وكان عباس حدثه عن هذه الزيارة وظروفها ، وأن هذا أول لقاء بين أم وابنتها منذ أكثر من أربعين سنة . لذلك كان الطبيب قد تحدث مع هدى ، وذكر لها أن ابنتها الوحيدة ترغب بزيارتها ، وهيئها لمثل هذا اللقاء العاطفي ، لم تتكلم وإنما كانت تهز رأسها بالموافقة ، وكان الدكتور قد رتب مع الممرضة المكلفة برعاية هدى الاستعداد لأي طارئ .

ركب الزوار المصعد للطابق الخامس حيث غرفة هدى ، ورحب بهم الطبيب النفسي المشرف عليها ، وكذلك حيتهم الممرضة الخاصة نوال ، دخل الدكتور سعيد ، وقال مخاطبا السيدة المريضة : كيف حالك يا أم عباس ؟ ها هو الدكتور عباس ومعه الدكتورة مريم.

دخل عباس وخلفه مريم ويوسف ، كانت نوال الممرضة قد أجلستها على سريرها ، وأسندت عدة وسائد خلف ظهرها ، كانت تبكي قبل دخول مريم وزاد البكاء والنشيج عند دخولهم ، ومريم تبكي مثلها ، ولما وضع عباس يده على رأسها اقتربت منها مريم وضمتها لصدرها ، وقد زاد نحيبهما وارتفع وهي تهمس : أمي أمي أمي حبيبتي يا أمي .

وتلك تردد مريم مريم مع مزيد من الدموع والنهنهات والشهقات ، وعباس يداعب شعرها واستمر البكاء والنشيج والتمتمة لدقائق ، وقال الطبيب المشرف : الحمد لله سارت الأمور على خير ما يرام .. اسمحوا لنا بالانصراف .. وسيكون العشاء حسب توصيتك يا دكتور ..

شكره عباس ، وكانت أمه تقول لمريم : أخطأت في حقك كثيرا يا مريم لقد ظلمتك معي .. استحيي أن أطلب مسامحتك وصفحك .. غلبني الهوى والعناد .. كان والدك أميرا ورضيا ومطيعا.. مريم كنت أخشى اللقاء بك .. تركتك رضيعة هل تسامحيني يا مريم ؟

كانت مريم تضع رأسها على صدره أمها وتبكي بعنف وصوت بكائها عال ، وتتنهد وتشهق بعمق ، وهي تسمع كلام أمها ، ولم تتكلم ، فأراد يوسف أن يبعدها ، فقالت : دعها يا ولدي لقد حرمتها من هذا الصدر .. غلبني الهوى والعناد .. أنت يوسف زوجها ؟

ـ أجل يا عمتي .. جئت البلاد منذ أسبوع .. شفاك وعافاك المولى .

قالت بحسرة وانكسار : شفائي يا ولدي برضا عباس ومريم عني ، رغم الصداع الذي أحس به ؛ فأنا سعيدة برؤيتي لهما قبل الفراق الأبدي.. لقد أخطأت وقصرت في رعايتهما .. غلبني الهوى والتحدي .. نسيتهما في صراعي مع أبي عزام .. كنت أظن أنني أفهم من أبي وعمي مسلم .. لقد تعلمت ودرست في الجامعة وهما أميان .

قال يوسف ساعيا للتخفيف من أثر الماضي على هذا اللقاء : ماض وانتهى بحلوه ومره يا أم عباس .

قالت متمنية : ليته ينتهي يا يوسف! إننا ما زلنا ندفع الثمن .. فهذا عباس يذكرني بجرمي كلما أذكر أنه شاب بدون زواج .. يرى أن النساء شر .. سيظل ضميري يعذبني بسبب هذا .

قال عباس : لست راغبا بالزواج يا أم داود ؟

فقالت وهي تداعب شعر ابنتها : دائما يريد تذكيري بالمرحوم أبي داود ، فلا يناديني بأمي أو بأم عباس

فقال عباس بجفاء اعتاد عليه : لم أتعود ذلك بعد .. والجرح لا يشفى سريعا يا أم داود .

قالت مريم وهي ترفع رأسها عن صدر أمها : عباس .. يوسف يجب أن نأخذها لبيتي .. دعونا نعيش ما تبقى لنا معا .

فقال عباس معترضا الرأي : أرأيت المكان يا مريم ويا يوسف ؟.. هذا بيت خاص لرعاية المرضى أصحاب المرض الصعب والذي يحتاج لوقت من العناية والمراقبة .. فهنا الأطباء والممرضات ، هذه ليست دار رعاية المسنين كما يرغب أولادها أولئك.. هذا شيء جديد في

بلادنا .. هذا فندق طبي .. وهذه الخدمة تقدم بمال ، وليست صدقة .. هذه الخدمة تقدم في هذه الدار بعد وضع رصيد عشرين ألف دينار في حساب المريض .. وأنت يا مريم صحتك ليست ولا بد .. وها أنا أقول بكلام غير عاطفي كلما تتحسن صحتك سيأتي يوسف بك إليها وقضاء ساعة أو أكثر معها ، وحتى أخوتك سيرحبون بصحبتك إليها إذا كان يوسف في عمله ومشغولا .. فهنا أفضل من البيت لها ولك .. أليس كذلك يا يوسف ؟.. هنا الأطباء والممرضات وإذا احتاجت لأخصائي ودواء فيوفرون ذلك فهم متعاقدون مع أطباء .. وأنا حصلت لها هذا المكان بصعوبة .. فهذه خمسة طوابق للنزلاء ، وأغلبها مشغول يا يوسف .

ـ أنت أمنت لها هذا المكان؟

ـ صحيح دار المسنين تخدم المرضى وغير المرضى ..وأجرتها أقل ، ولكن هنا أفضل ، وقد حولت إليها عددا من مرضاي الأثرياء .. ويمكن أن يأتي الأطفال لزيارة جدتهم يا مريم .. لا تدعوا العاطفة تتحكم فينا .

فلما رأوا أن المرأة تريد أن تستقر في البلد ، اجتمعت العائلة للتشاور في شأن هدى عزام ، اجتمعوا ليتفقوا على التصرف الأمثل لهم ولسمعة العائلة ، كانت مريم وإخوتها من أبيها يرغبون أن تعيش في بيت خاص لها ، ويشرف عليها طبيب خاص من خارج العائلة صديقا لهم ، ويقوم على خدمتها ممرضة دائمة وخادمة خاصة لتساعدها في الطعام والشراب والحمام . وكان من رأي عباس وبعض أبناء أعمامه بقائها في دار رعاية المرضى لتستمر متابعتها صحيا وعقليا ، وأن الدار تقدم خدمة راقية للمرضى مقابل التكاليف المادية العالية .

فقال أحد الأخوة : قد يطول مكثها وتتعبون من الدفع .

فقال عباس مبددا هذا الهاجس: هي التي تدفع من مالها ، وثروتها التي ورثتها عن أبيها ، ولها تقاعد اجتماعي من ضمان كندا .. فلحتى الآن ليست بحاجة لفلس واحد منا .. وأخبرني أخي عزام أن داود ويحيى اخبروه باتصال بينهم أن وضعها المالي جيد ، وقد جمعت مالا أثناء حياتها

هناك ، وورثت عن زوجها المال الكثير ، ولها نصيب في متاجرهم .

قالت راضية : القضية يا عباس بعد دار الرعاية عن المدينة .. مرة على مرة سيطرأ علينا الملل والتملص من زيارتها .. وأنت خاصة تعمل في الليل والنهار .

ـ أنا وعدتها بزيارة واحدة كل شهر يا راضية .. أنا لست مدينا لها بشيء .. حتى لو سكنت في شقة خاصة سأبقى على هذا الترتيب .. وأنتم أحرار .. أنا فعلت ما أردتم نحوها ، ومن أجل خاطر حياة أبي وجدي .

فقال يوسف لما رأى توتره : هدأ نفسك يا عباس .. كلنا يدرك الألم الذي يسكن قلبك .. ؛ ولكنها اليوم مريضة وكبيرة وضعيفة ، ونحن نقدم هذا العطف من أجلنا نحن ، ولسمعة العائلة ككل يا عباس .. الزيارات توزع على الجميع ، وبترتيب معين والذي يريد أن يزيد فلا حرج .

عادت مريم تقول وهي تبكي وتمسح دموعها وتضعف عن مقاومتها : الشقة حولنا أفضل لنا فلا يجب أن نعاملها بالمثل يا يوسف .. إذا كانت قريبة يمكنني التردد عليها باستمرار .. لولا مرضي ما قبلت لها الحياة دون بيتي ، فأنا طبيبة ؛ ولكن عندما يهيج المرض عندي أصبح ميتة فأزيد من ألمها .. هي اختارت الحياة هنا ، فعلينا أن نكون عند حسن الظن .

قال عباس بضيق واضح للعيان وعصبية : هم شجعوها للحياة هنا ، فعندهم طب وعلاج متقدم ، وهذا كله تحصله هناك بأسعار زهيدة وعلى التأمين الصحي ، ولكنهم ملّوا منها ، ولا وقت لديهم لرعايتها ، وزوجاتهم سيئات .. هذا كلام ابن عم لهم عاش هناك معهم بضع سنوات ، ثم رجع وكله خيبة ، قال لي وقد التقيت به أيام المستشفى "إن حياتهم سهرات ورقص ومجون ، ولا وقت لديهم للاهتمام بها ومتابعتها"

ـ هكذا حياتهم هناك يا عباس .. ونحن لا تهمنا حياتهم الخاصة .

عاد عباس ليقول بسخط بين : الآن صار لنا أم يا سادة .. سأترك البلد من أجلها

قالت راضية معترضة : ولماذا تترك البلد يا دكتور عباس ؟ وهل الهروب حل ؟ وهي لا تريد منا شيئا يا ابن أبي .. ليست بحاجة لمالنا .. هي تحتاج لرعاية معنوية وعطف وبعض الشفقة .. ووالدك وصاك عليها يا عباس ليس من أجلها هي .. من أجل أنها ابنة الحاج عزام الجد الذي أحبك أكثر من ابنته ، كما كان يحدث أبونا حسن رحمه الله .

قال بسخط : لا يريد قلبي أن يصفو لها يا عالم .

قال يوسف : الإنسان يزور عدوه وغريمه يا حضرة الدكتور .. أنت لو تزوجت لعرفت الأمومة والأبوة حق المعرفة يا عباس .. ألم تكن تلاحظ أيام الدراسة الفرق بين المدرس المتزوج وله ذرية والمدرس الأعزب ؟ .. فالحنان يتفاوت بين الناس .

ضحك عباس وقال : لم ألاحظ ذلك كنت أيام المدرسة حزينا ، وغارقا في همومي وهرب أمي الشائن ، كنت مخزيا يشار إليّ بالفتى الذي هربت أمه لعشيقها في أمريكا، كانت قصة جارحة خيم الوجوم القاتل على كل الجالسين ، وأدركوا عظم المرارة التي يعيشها الدكتور عباس ، حتى أن مريم ارتفع بكائها وقالت بعد حين : لماذا تذكرنا بمثل هذه المشاهد يا عباس ؟ كانت أياما مريعة .

ـ ليعلم هؤلاء الجالسون من أين تخرج هذه الألفاظ القاسية ؟ هم لم يعيشوا تلك اللحظات المؤلمة .. لقد قتلتنا وعذبتنا طوال سنوات عمرنا

قالت راضية : الزمن لن يعود يا أخي يا عباس .. ويقولون الزمن كفيل بتخفيف المصائب .. ولكن زمنك ما زال يؤلمك ويجرحك ..والأمر محزن لك ولنا ..كان الله في عونك .. وهل نستطيع إعادة دورة الزمان يا دكتور عباس ؟ هل نهرب من مواجهة الواقع ؟ ونترك ابنة الحاج عزام دون أدنى العطف والمساعدة .. نحن نساعد الغريب بالعطف والتواد والدواء والمال ..

قال بحدة : الغريب يساعد للحظات ووقت محدود .. والغريب لم يؤذنا في أنفسنا وحياتنا ..

قالت راضية : العجيب أنك تصلي يا عباس ، وتقرأ في الكتب الإسلامية!

ـ وهل أصير ملحدا ؟ كان أبي يحب أن نصلي ونصوم .. ها هي أمنا منذ طلقت لم تسجد لله .. لما سألتها مريم عن الصلاة ؟ قالت : وهل يذهب أحد للغرب ويحافظ على الصلاة يا مريم ؟ وزادت وأنا تركتها منذ مات أبي .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أنا كنت أظنها لا تصلي بسبب المرض والحادث .



قضية هدى

استقرار هدى في أرض الوطن بعد هروب استمر أكثر من ثلاثين عاما، وعودتها كمريضة أربك أحفاد الحاج عزام وشقيقه مسلم ، لقد استقر في وجدانهم أنها ستبقى مهاجرة حتى المات ، هي رافقت زوجها عندما أتى للعلاج عند أهله أو إكمال العلاج في المدينة ، وإذا حصلت الوفاة كان يريد أن يدفن في بلده ، وهذا ما حصل ، ولكنها لم تلتق بفرد من أفراد العائلة ، ولم يسع للقاء بها أحد ، وسافرت بعد هلاكه ورحيله عن الدنيا ، ومضى الحدث ، ولم يهتموا به كثيرا ولا قليلا .

وأما استقرارها بينهم هذه الأيام فقلب حياتهم ، فهي وإن ترملت على زوج غير أبيهم ، فهي أم عباس ومريم ، وهي ابنة جدهم عزام ، وعباس بكرها هو الأولى بها ، وهو ما زال حاملا عليها ، ومتهربا من مسؤوليته الأدبية والدينية اتجاهها .

لذلك كان أشقاء عباس من أبيه بين نارين ، غضب عباس المكبوت والذي يثور بين الحين والأخر نحو وجودها بينهم ، ونار القرابة وأم أخيهم ، ومطلقة أبيهم حسن ، وابنة عم أبيهم وابنة جدهم عزام ، وهم يعلمون أن سبب رفض عباس الاقتران بأنثى هو قصة أمه ورميها لهم صغارا ، والهرب من الوطن للزواج من صديق الجامعة .

لذلك كانت راضية وأشقاؤها كلما التقوا بدون عباس ومريم في بيت والدتهم الأرملة فائزة يتحول حديثهم تلقائيا إلى معضلة هدى وعباس ومريم ، فبعد اللقاء الذي أشرنا إليه سابقا جلس الأخوة يتحدثون عن طريقة لإعادة الحياة إلى طبيعتها بين عباس وأمه ، فهم يعلمون أن أفعاله التي ظهرت لهم كانت ترضية لهم ، وليس من أجل أن هدى أمه ومريضة ، لقد خشي من اهتمامهم بها من دونه فيسبب لنفسه وجع رأس من جديد .

كان عباس بعد استقرار والدته في دار رعاية المرضى يمر عليها في الشهر مرة واحدة وذلك مساء الجمعة ويصحب مريم إذا كانت طيبة وبصحة جيدة ، ويتناول الغداء الذي يوصي عليه

المستشفى مع أمه ، ويسألها عن حالها وصحتها ويلزم الصمت ، وهي أحيانا تحثه على الزواج حتى لا تبقى حزينة ومتألمة لتركه سنة الله في خلقه ، فيقول لها بعد أن تردد أفكارها " فات الأوان يا أم داود " ويعود الصمت بينهم ، ومرات تسأل مريم عن وجعها وصحتها وتبكيان بضع دقائق ، وبعد تناول الغداء معها في غرفتها الفندقية يبدأ الاستعداد للمغادرة ، وتعانق ابنتها التي تفعل مثلها ، وتقبل مريم يدها وتلحق بعباس الذي يكون في انتظارها عند باب المصعد منتظرا صعوده .

واعتادت مريم أن تصحب زوجها يوسف في زيارة أخرى ، ولا تطول زيارة يوسف ؛ لأنه لا يتخللها طعام ، إنما يأخذون معهم بعض العصير والحلوى المسموح لها بتناولها ، وتشكيلة من الفواكه الطازجة .

يوسف التحق بالعمل في أحد المستشفيات ، وأما مريم فانشغلت بمرضها ، ورعاية أبنائها الذين شبوا ، وقد التحق أحدهم في الجامعة ليدرس مثلهم في كلية الطب والجراحة .

وكانت الأم تجعل لقاءها بيوسف ومريم حول الضغط على عباس ليقترن بأنثى ويتزوج فيقول يوسف : لقد تعب لسان والده يا عمتي وهو يرغبه في ذلك ، ومات وهو يحثه على ذلك لكنه في هذه القضية حسم أمره .. ورغم تعامله الكثير مع طبيبات وممرضات ومريضات لم نسمع أنه هم بالزواج حتى أننا مرة سمعنا أن له اهتماما خاصا بمريضة بنت أحد الشخصيات المهمة ، وقد زارها في البيت عدة مرات مما أثار دهشتنا ، واعتقدنا أن تغيرا سيحدث لعباس .. هذا نقل لنا ونحن نعمل في السعودية .. ثم انتهت القصة بدون نهاية .

وهكذا كانت زيارات راضية وإخوتها وزوجها وزوجاتهم ، وهي تترجاهم لتحقيق ذلك الهدف .

قضت هدى سنتها الأولى في دار رعاية المرضى أو كما يسميها شركاء الدار قصر الوفاء ، ولم يتحسن وضعها الصحي كما كان مرجوٌ من كثرة العلاجات التي تعرضت لها ، وأسرة حسن

مسلم لم تحسم أمر بقائها في ذلك المكان أم الحياة في شقة خاصة وسطهم ، بل عرضت فائزة أم فضل حياتها معها في عمارة والدها الحاج عزام ، العمارة التي ورثها حسن عن عمه عزام أي والد هدى . أصر عباس على بقائها حيث هي ، فهو يخشى مللهم بعد حين ، فأمراض الدماغ الشفاء منه إما صعب ، وقد يأخذ وقتا طويلا ، وإما لا يذهب إلا بالموت ، فيخشى أن تخفت فورة العاطفة والشفقة على أمه ويتورط هو معها ، وهو ما زال في نفسه غصة منها .

وهدى نفسها لما لمحوا لها بهذا العرض رفضت بشدة وغضب .. وهو الحياة في بيت والدها القديم حيث ذكرياتها الأولى وحياتها مع حسن ، وتذكرت مشاجراتها الكثيرة مع حسن ، وكذلك ذكرياتها مع أمها التي ماتت ، ولم تشهد جنازتها وأيامها الأخيرة ، رأت أن العودة إليه عذاب سيؤرق كيانها في سقمها ، وصارحت راضية بذلك بعدما رفضت الاقتراح بالعودة لبيت والدها . وبينما هم يتجادلون ويقترحون قدم عباس طلب تقاعد من الجيش ، وقبل طلبه وخلال شهور ترمج كطبيب من الجيش برتبة عميد ، وقد بلغ من العمر خمسين سنة ، وعرض عليه العمل في عدد من مستشفيات القطاع الخاص ، وبعضهم عرض العمل عليه في عيادات متخصصة في طب وأمراض القلب ، وتعاقد مع شركة عالمية للعمل في عمليات خاصة في أي مكان في العالم حسب الطلب ، لذلك بعد قبوله لدى تلك الشركة الطبية العالمية" الطبيب الطائر " بدأ يتنقل في بلدان العالم حيث يطلب منه السفر ، فمرة يجري عمليات في الهند ، ومرة أخرى في البرازيل ، ومرة ثالثة في جنوب أفريقيا ، فقل وجوده في البلد .

فقالت له مريم : أهذه حياة يا عباس ؟

ابتسم لها وقال : ولماذا الخوف؟ عليّ لا أسرة ولا أولاد.. بل ارتحت من مشاكل أم داود ..

ـ أمك يغمرها الندم يا عباس

ـ وماذا ينفع ندمها عباسا اليوم يا أختاه ؟ ـ إنها في النهاية أمنا.

ـ وماذا نفعل لها ؟ ها هي في مكان من أفضل أماكن الرعاية للمرضى في الشرق الأوسط..

وأطباء أكفاء يهتمون بها ، ونزورها كلما تحين الفرصة .. ماذا نفعل لها أكثر من ذلك ؟ ليس لدي أحفاد وأبناء يلتفون حولها .. حكموا عقولكم يا ناس

قال يوسف : صحتها تتدهور يا عباس

ـ المرض الدماغي ـ وأنتم الأطباء ـ تعلمون أنه من الصعب الشفاء منه نهائيا ، ولا تنسوا السن التي هي فيها ، ولم تكن الضربة والحادثة سهلة .. بل من فضل الله أن عاشت بعد الحادث .. أنا قرأت كل التقارير الطبية ، وتحدثت مع إدارة المرور في مونتريـال عن تفاصيل الحادث ، ومع المستشفى الذي تعالجت فيه بعد الحادث ، فقالوا "إنها اليوم بخير" لما أرسلت لهم صور التقارير ، لقد توقعوا موتها بعد حين يسير ظنا أن التلف سيزداد مع الوقت .

حمدت مريم ربها وقالت : كلما أراها وحيدة أحزن عليها ويتمزق قلبي .

ـ يا مريم العزيزة هي التي شاءت الحياة بعيدة عن العائلة وعنا .. هي بغضت أبي ؛ لأنه تزوجها غصبا عنها .. ولما مات أبوها طلبت الطلاق فور انتهاء العزاء ، وبعد ضغطها وتهديدها لهم بالانتحار وافق أبوك على الطلاق تحت الأمر الواقع .. وهي التي اختارت البعد والهرب عن الأسرة ، وضحت بنا من أجل شهوة حب مزعوم .. ومع ذلك سكت الناس عن فعلتها المشينة للأبد ، وقبلوا التعايش معها وفاء للحاج عزام ولأبي زوجها الأول .. وحتى لو سكنت بيتا سيكون مستشفى لها .. طبيب ممرض طباخة خادمة

ـ أنت تعقد الأمور .. لو كانت تعيش بيننا .. في أي وقت ليلا نهارا نمر عليها .. نسهر معها .. نشد من أزرها .. أنا لولا الناس حولي أولادي أولاد إخوتي وأولاد إخوة يوسف بناتهم نسائهم لانشغلت بمرضي وهلكت قديما

ـ صحيح هذا الكلام بحقك أما بحق أم داود فكل نساء العائلة لم يعجبهن فعلها .. فهل سيأتين ببناتهنّ ليتعلمن تفاصيل قصتها ؟ وإنها أحبت شابا في مقاعد الجامعة وضحت بالعائلة والعادات من أجل الهوى .. لقد أجرمت في حق العائلة المحافظة .

وصية مريم

لقد عمل عباس بعد تقاعده في مؤسسة طبية عالمية تعمل حول العالم ، ونتيجة لهذا العقد أصبح متنقلا بين مدن كثيرة في العالم لإجراء جراحات القلب والدماغ ، وكان يعمل ضمن فريق جراحي عالمي ، ولذلك كانوا يذهبون لإجراء عمليات في مواقع الكوارث العالمية من فيضانات وزلازل وبراكين .

ووجد الرجل راحة نفسية في هذه التجوال رغم مشقة السفر في الطائرات والقطارات والحافلات ، ولم يقصر بالاتصال مع أخته مريم وزوجها يوسف ، فقد صادقه منذ الطفولة ، فلذلك عندما كان يستقر في مدينة فكان أول هاتف يكون معهم ، وكانت تشغله صحة مريم كثيرا .

وبينما هو يوما في مدينة من مدن جنوب أفريقيا يعملون نشاطا طبيا ، وعندما عاد للفندق وقام بالاتصال بمنزل مريم ـ وقد كان له أكثر من أسبوع لم يتصل بهم ـ رد عليه ابن شقيقته محمد طالب كلية الطب ، فنقل إليه خبر وفاة شقيقته منذ يومين ، فاسترجع الرجل ، وترك السماعة وأخذ بالبكاء ساعة من الزمن ، ثم عاود الاتصال واستفصل من زوجها عن لحظاتها الأخيرة ووصيتها ، فقال يوسف بعد تقبله العزاء ورواية أيامها الأخيرة : كانت ترغب برؤيتك وهي تودع الدنيا ، ولم نتمكن من الاتصال بك .. وكانت وصيتها لك برعاية أمك والزواج ..كانت تتمنى

أن تراك زوجا وتحضر حفلة زواجك .

وعاود عباس البكاء وقال : سأتصل بك ثانية .. كنت أحبها كثيرا يا يوسف ، كانت هي دنياي ، وكنت أعطف عليها كثيرا ، في أقرب فرصة تتاح سآمر على البلاد ، وأزور قبرها ، وأتصدق عن روحها العزيزة إليّ .. لقد كانت النور لي في هذه الحياة .. أظلمت الدنيا في وجهي .. صبرك الله يا يوسف ..سلم لي على الأولاد سأكون بينكم قريبا .

أغلق الهاتف وعاد يسكب العبرات على شقيقته التي قضت عمرها في الألم والحزن والمرض ، كان يتذكر دموعها ونشيجها لما تخلو بنفسها ، عندما كبرت وعلمت بهرب أمها وتركتها صغيرة ، كانت في البداية تظن أن أمها ميتة ، ولما وعت لقضية هربها ، كانت تبكي كثيرا وعباس ينظر إليها حزنا وألما وضيقا .. سخط على الحياة التي اختارت له هذه الأم ، ثم يتوب إلى الله ويستغفره عندما يعاتبه والده بصوت رقيق وهادئ .. كان حسن المدرس يشعر بالألم الذي يعانون منه من تصرف أمهم الأرعن .. ويقول لهم " أسوأ الاحتمالات افرضوا أنها ماتت ".. وهل هذا الأسوأ يخفف الجرح النازف ؟ وهم يعلمون أنها مهاجرة .. تركتهم للزواج من رجل دغدغ عواطفها ، وأخذ مال جدهم ليبتعد عنها ؛ ولكنه خان العهد ، وظلا يتراسلان من وراء أبيهم الذي تظاهر بالغباء والجهل حتى لا يموت عمه كمدا وحزنا ، ولربما كان الجد يعلم هو الآخر بتلك الرسائل ، وتظاهر بالجهل حتى يدفع حسنا لطلاقها ، ثم مات معلولا بالقلب ، وأحب لعباس أن يكون طبيب قلب .

وها هو عباس يحلق في أجواء العالم ليعالج قلوب البشر ؛ ولكنها قلوب القادرين على دفع المال ، بل كان يسر سرورا كبيرا عندما يعالج جنديا صغير الرتبة في الجيش أكثر من معالجة كبار الضباط والشخصيات المهمة في البلاد .

شريط الذكريات والأحداث سواء الأسرية أم العلاجية يدور أمام ناظريه ولم يتوقف إلا عندما اتصلوا به للنزول لقاعة الطعام ، فاعتذر وطلب العشاء في غرفته ، وقد ذكر لمدير الحملة التي يصحبها ظرفه الحالي .



قضى عباس ست سنوات مع الفريق الطائر ، ثم عاد ليستقر في بيته الذي شيده في حياة والده حسن ، ولما زاره يوسف ابن عمه الذي تزوج ثانية بعد وفاة مريم بشهور . فقال له : لقد وعدتني بآخر زيارة للبلد بأنك تفكر بتحقيق وصية مريم بالزواج .

فقال عباس متظاهرا بالبلاهة : هل يتزوج المرء بعد الخمسين ؟!

ضحك يوسف وقال : المرء يتزوج على الثمانين يا عباس .. ها أنا تزوجت وأنا في الخمسين وولدت المرأة طفلين ، وعدنا نسمع بكاء الصغار من جديد بعد انقطاع طويل .

ـ كيف عائلتك الجديدة ؟

ـ هي من بنات بنات الخال ماجد ، قبلت بي ، وهي قد أنهت الجامعة قبل زواجنا بسنتين ، فيها عيب خلقي منع زواجها أو قل نفر الشباب عنها .. أختك راضية هي التي حدثتني عنها وسعت بذلك النكاح .. وهي طيبة ومسكينة .

ـ لقد رأيتها وهي فعلا طيبة ومسكينة .

ـ أنت الآن متقاعد فعليا !

ـ تقاعد من الالتزام بعقد أو مستشفى ، ولكني سأقوم بعمليات خاصة مع عدد من العيادات حسب الطلب والاتفاق .. وهل يتقاعد من معالجة الناس ؟! .. التقاعد فقط من الوظيفة .. بل تحدث معي الدكتور سرور لإنشاء مستشفى خاص ، فاعتذرت لا أحب العمل الإداري كثيرا .

قال يوسف محمد : جميل هذا الكلام ! .. سأتحدث مع المستشفى الذي اشتغل فيه ليتعاونوا معك في إجراء عمليات خاصة ، ففيه قسم عمليات للقلب ، سواء القسطرة أم القلب المفتوح

ـ حسب الظروف والفراغ .

ـ حسن ذا .. نعود لوصية مريم الغالية على قلبك .

ضحك عباس وقال : الزواج .. وهل من تقبل بهذا الشيخ الذي لم يعرف النساء ؟

ـ أختك راضية تحسن الاختيار ، فهي بحكم عملها طبيبة بمؤسسة اجتماعية ، ولعلاقتها بعدد من الجمعيات ستختار لك العروس المناسبة لرجل يكره النساء ..

قال مادحا لأخته : راضية أخت عزيزة أكثر من أم أسامة .

ـ أولاد وبنات عمي حسن كلهم أفاضل .. هل أتحدث معها أنا ؟

ـ نعم ، وصية مريم غالية على قلبي يا يوسف .. افعل لأنني أنا أستحي أن أحدثها بمثل هكذا موضوع .

تبسم ابن عمه وقال : أعرف ، ومن أجل ذلك تطوعت لفتح الموضوع معها .. وهذا الأمر سيسعد الجميع يا عباس ، وعلى رأسهم أم عباس ـ غفر الله لها ـ فصحتها للأسف في تدهور هل رأيتها ؟

ـ تعشيت معها ليلة أمس ، وسهرت عندها للعاشرة ليلا.

قال بسرور : تطور رهيب يا عباس .

ـ كانت متعبة ونقلوها لغرفة الفحص ومتابعة القلب ، فاضطررت للبقاء معها حتى انتهت الفحوصات ورسم القلب والدماغ .. من قبل المغرب وهم يتابعونها .. وهي كما قلت تضعف رويدا رويدا ؛ ولكن الدار تقوم بواجبها على خير ما يرام .

ـ ليس مجانا قد دفعتم ربع مليون منذ استقرت فيه .

ـ سندفعها في أي مكان ستكون فيه

ـ نسأل الله لها العافية وحسن الخاتمة ؛ ولكنها لو عادت للصلاة على الأقل .

ـ ضعف الذاكرة والوهن لا يمكنانها من معرفة الصلاة .. الله يلطف بها .

حضر العشاء من المطعم المتعاقد معه عباس ، وقامت الخادمة وشقيقها بتهيئة السفرة في قاعة الطعام ، ونهض إليها الرجلان ، وقال يوسف : كان محمد ابن شقيقتك راغب بالمجيء معي ،

ووجد زوجته الحامل عندها صداع فأجل المجيء

ـ كيف زوج فاطمة ابنتك ؟

ـ شاب طيب، وأهله من خيرة الناس ، ويعبرون عن سعادتهم بالتوفيق لاختيار فاطمة يوسف لابنهم .

ـ هو ليس من أقاربنا كما فهمت منك مرة ؟

ـ تعرفت على والده في المستشفى الذي أعمل فيه ، فهو رئيس قسم المحاسبة ، وتعمقت صداقتي به ، ولما تخرج ابنه من كلية الهندسة رغب بمصاهرتي ، فهو قد رأى البنت كذا مرة عندما كانت ترافق أمها للعلاج عندنا .. وبعد موت مريم وانتهاء ابنه من الجامعة كلمني وحصل القدر .. وهو شاب هادئ مثلك ، وها هي قد ولدت منه طفلة جميلة .. ولسوف يأتون للسلام عليك كما اتفقت معهم ، فأنت خالهم الغالي .. وسيف الصغير فهو يدرس في القاهرة كما تعلم .

ـ قابلته مرة أو أكثر هناك ، وقضى معي ليلة في الفندق

ـ وأعطيته خمسمائة دينار ليتبحبح بها .

ضحك عباس وقال: أقال لك ذلك ؟

ـ وهل يستطيع إخفاء ذلك ؟



تلقت راضية رغبة عباس بالزواج بحماس شديد ، وقالت ليوسف مبتهجة : هذا خبر رهيب! عباس يريد أن ينفذ وصية مريم ـ رحمها الله ـ سأهتم بتحقيق هذه الرغبة التي احتاجت لعشرات السنين حتى تتحقق ـ إن شاء الله ـ سنفترض أنه ترمل مثلك .. ولكنك تزوجت

صبية شابة بينك وبينها ثلاثون سنة .. أتراه يريد فتاة مثل أهلك ؟ عباس معقد من جهة النساء يا أبا محمد

ـ امرأة فوق الثلاثين ودون الأربعين حتى تنجب له ذرية يا راضية .

ـ اسمع يا يوسف ما رأيك بأخت زوجي الأرملة ؟

ـ نبيلة سليم .. كم ولد عندها ؟

ـ مات زوجها عنها على طفلين سعيد ابن اثني عشرة سنة وخولة عشر سنوات وهي دون الثلاثين سنة .. أصغر شقيقات عيسى كما تعلم ترملت منذ سنتين فقط .

ـ هل لعيسى زوجك كلام ؟

قالت : لا أعتقد أن يعترض عيسى .. فهو يحترم عباسا كثيرا رغم أنه يراه معقدا أو مكبر موضوع أمه أكثر من اللازم .. وهناك والديّ نبيلة أحياء .. وهم من العائلة الكبيرة .

ـ تحدثي مع أخيك بشأنها قبل أن يغير رأيه.. فمريم كما تعلمين كانت شيئا كبيرا بالنسبة لعباس .

ـ هذا معروف يا أبا محمد .. سأتصل به الآن وآخذ موعدا معه .

ـ هو أغلب الوقت في البيت منذ عاد من سفره الأخير ، وقد فسخ عقده مع الطب الطائر .. هذا الكلام كان بيننا ليلة أمس ..وذكر لها تعب أمه وقضاء ساعات معها في دار الرعاية .

لما انتهت المكالمة بينها وبين يوسف ، وقبل أن تتصل على عباس قال لها زوجها الذي دخل عليها وهي تتكلم في آخر المكالمة : أبو محمد الذي كان على الخط ؟

ـ أجل يا أبا سليم .. عرجنا على ذكرك أثناء الحديث

ـ ذكري .. خيرا إن شاء الله !

ـ يقول يوسف إن عباسا يريد تحقيق وصية مريم

ـ وصية مريم أختكم !

قالت : وهل هناك غيرها يا سليم ؟! .. وصيتها له وهي تحتضر بالزواج

ـ تذكرت نعم ، وهل سينفذ الوصية اليوم ؟

ـ يبدو ذلك ، فكان يوسف عنده ليلة أمس ، وحدثه عن تلك الوصية ، فكلفه بالبحث عن امرأة تقبل به في هذا السن ، فقال له يوسف "وها أنا تزوجت وأنا بمثل سنك .. لا يهم السن بالنسبة للزواج خاصة الرجال" .. وكان يوسف يحدثني بذلك ، ويطلب مني السعي له بذلك فتذكرت نبيلة ما رأيك أنت ؟

ـ أختي نبيلة .. لا أدري يا راضية .. عباس جيد وأخوك ثانيا وقريبي ثالثا.. أيصلح عباس للزواج بعد كل هذه السنين من الهجر للنساء ؟

ـ من ناحية القدرة الجنسية " الباءة " لا أحد يعلم إلا هو .. هو إنسان له شهوة كغيره من الناس ، وأختك أرملة وعندها أولاد ، فلو لم تنجب منه لا حرج في نظري ، وسأتحدث معها صراحة بكل هذه المخاوف ..

ـ نعم ، عليك بالحديث معها دون مواربة يا راضية ، وقد عاشت سنوات بدون ولادات .. ابنتها عشر سنوات ، وفهمت منها أن زوجها اكتفى بالاثنين

وأكدت راضية قائلة : وكانت قابلة لذلك يا عيسى .. وسيهتم عباس بأولادها ورعايتهم وتدريسهم .. هي عصبية بعض الشيء كما تعلم ، وأرى أنها مناسبة لعباس ، فعباس من عشاق الصمت .

ـ وهي من عشاق الثرثرة . ـ هل يعترض والدك على عباس إذا قبلته نبيلة ؟

ـ أمي تحب عباسا ، وتتألم لمأساته ، والوالد يحترم عباسا ، ولا تنسي أن نبيلة أرملة.

ـ وأنا فكرت بها ؛ لأنها سيدة أرملة ، وأن عباسا كبير السن ، إنه يقترب من الستين ولم يعرف الحياة الزوجية .. فنبيلة عندها خبرة تستطيع تحمل عباس وظروفه ، وهي تعرف قصة أمه هدى .. سأتصل بعباس الآن وأرتب معه لقاء.

من قصص عمر

لما أنهت راضية حسن دوامها في العيادة الخاصة بها ، ركبت سيارتها ـ وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة مساء ـ وسارت باتجاه بيت أخيها عباس الذي كان في انتظارها على موعد مسبق بينهما ، ولما دخلت الفيلا وجدت عنده بعض الضيوف ، فألقت التحية عليهم وقالت : سأدخل للصلاة فقد سمعته يؤذن للمغرب .

ولما قضت صلاتها ناداها عباس قائلا : تعالي لقد انصرف الزائرون .. إنهم أصدقاء الجيش .

فقالت وهي تغادر حجرة الصلاة : أذكر أنني قابلتهم هنا أكثر من مرة عساهم بخير .

ابتسم لأخته وقال : هم يعرفونك أيضا ، فهم أطباء ، ويهدونك السلام ، لما سمعوا باستقالتي من المستشفى الطائر جاءوا للسلام .. أهلا بالأخت الغالية .. العشاء قادم .

ـ أنت لماذا لا توظف عندك طاهيا بدل طعام هذه المطاعم ؟!

ضحك عباس ورد قائلا : عندي طباخ وأخته.. ولكني أحببت طعام السوق والمطاعم منذ استقلالي بالحياة .. فهم يقدمون الإفطار لي وأحيانا العشاء الخفيف ، أما لما تزورني أم سليم فمن الواجب إكرامها.. وكيف

وهي قادمة لي بعروس؟

ضحكت راضية وقالت : أنت عزيز على قلبي ! أنا أحبك يا عباس بحق ! .. وأنت نعم الأخ وأنت وصية أبينا حسن ـ رحمه الله ـ فقد ذهلت لما نقل لي يوسف أخيرا خبر رغبتك بتنفيذ وصية مريم الغالية علينا ـ رحمها الله الرحمة الواسعة ـ وقد عانت كثيرا في حياتها الدنيا ، وستجد ذلك الثواب الجزيل عند الله ..

ترحم على شقيقته مريم وقال : في رأيك أأصلح بعد هذا العمر للزواج ؟

ضحكت وقالت : أكيد لن تكون مثل الشباب .. فالسن له دوره في ضعف الناس ؛ ولكن الرجال يتزوجون ولو بلغوا مائة حتى أننا نسمع حكايات أن بعضهم يتزوج فتيات دون

العشرين .. واليوم يستخدم الناس الأدوية والمنشطات ..

دخلت الخادمة تخبر بوصول الطعام ، فنهض الأخوان إلى حجرة الطعام ، حيث كان الخادم يدخل المواد من سيارة شركة الأطعمة والوجبات ، وكان عباس يعرف الطعام الذي تشتهيه راضية ، ولما جهزت المائدة جلسوا يأكلون ، فقال عباس : أنا لليوم ـ كما تعرفين ـ لم أقرب النساء ، عافت النفس ذلك .. مع أني عشت أيام الشباب عدة سنوات في ألمانيا ، وتعرضت فيها للإغواء أكثر من مرة ، فكنت أرفض ممارسة الجنس مع أن فتياتهم لا يرون ذلك شيئا كبيرا ، كما هي نظرتنا نحن للجنس خارج الحياة الأسرية .. وهم عندهم ـ كما تعلمين ـ ثقافة الجنس أو الزنا الآمن

ـ هذا هو الصح الزنا .. عندهم وسائل الوقاية المتعددة ، ويعتبرون المعاشرة الزوجية كمن يأخذ إبرة بنسلين والعياذ بالله من سخط الله ، ورغم كل هذه الحمايات يا عباس تنتشر عندهم الأمراض الجنسية والعيادة الجنسية .. لا مجال للمقارنة بين نظافة وطهارة الإسلام والأديان الأخرى .. أنت تحسن اختيار الأطعمة يا عباس !

ـ علمتني الحياة ذلك والسفر خاصة ، بعض الناس يسافرون من قطر إلى آخر من أجل أكلة شهية في طوكيو في روما ..

ـ كل الناس تأكل ؛ لكن الأموال أين سينفقونها ؟

ـ هو مالهم ورزقهم ، فلماذا لا يتمتعون به في حياتهم؟ وما الفائدة لتركة للورثة والجمعيات وهو كثير ؟

سكب لهم الخادم الذي كان يقف مراقبا لهم شراب العصير عندما لاحظ أن الدكتور بدأ يمسح فمه ، وتناوله عباسا وجرعه ، وأعاد الكرة وهو يقول : كلي حسب طبعك يا راضية .. أنا تناولت بعض الفاكهة مع ضيوفي الكرام .

شكرته بعينيها ، ولما بلعت ما في فمها قالت باسمة : ألست في بيت أخي الغالي ؟

ـ إني أحترمك جدا يا راضية وأنت تعرفين هذا .. كيف أمك اليوم ؟

ـ إنها بشوق لرؤيتك بعد عودتك هذه .. وعندما تعلم برضوخك لوصية أختنا مريم ستدب فيها الحياة

قال : أمراض المفاصل تتعب الصغار قبل الكبار .. تكلمت معي بالهاتف ، ووعدتها بالمرور عليها .. فانقلي لها شوقي وتحياتي .

وانتقلوا لصالون الفيلا وقد وضعت أمامهم الفاكهة والشاي الأحمر وبعض أنواع من المكسرات التي يحبها عباس، ولما استرخوا على المقاعد قالت راضية : أفهم من كلامك الصريح أنك لم تعاشر امرأة طول حياتك .

ـ أبدا يا راضية حتى أثناء عملي الأخير مع المستشفى الطائر تعرضت لي بعض الطبيبات والممرضات العاملات ضمن الفريق لمثل هذا ، فاعتذرت ، بل استغربن جدا من عدم ممارستي للجنس لذلك اليوم .. لولا معرفتي بتهاونهم في مثل هذه العلاقات لتعجبت من حياتهم البهيمية .

ـ إنما هي ثقافة سائدة عندهم .. لذلك قد تعيش المرأة عندهم مع الرجل سنوات وسنوات بدون زواج وعقد رسمي .. حسنا يا أخي الحبيب أعندك صفات معينة للمرأة التي ترغب بها زوجة لك ؟

ـ حقيقي عندي قلق كبير من الزواج ، ولكن زواج يوسف بعد وفاة المرحومة مريم من فتاة تصغره بزمن كبير رفع من معنويتي للزواج ، وأخشى في نفس الوقت أن لا أنجح في الحياة الزوجية خاصة من ناحية المعاشرة يا راضية فأحطم المرأة التي ستكون زوجة لي ..فالطلاق عليّ سهل إذا لم أعد أصلح لهن .

ـ المشكلة هذه! وهي الضعف الجنسي لدى الرجال ، وهو سبب الكثير من حالات الطلاق في كل بلاد العرب والمسلمين .. وثقافة الأفلام الشائعة تثير الشجون لدى الجنسين ، ويعتقد

الرجل أنه مثل الجرذ لديه طاقة كبيرة في مخدع الزواج ، ولما يتزوج يكتشف أنه إنسان ليس حيوان .

ـ أنا أريد امرأة محترمة تقدر أنها تزوجت رجلا كهلا أو شيخا ، ولم تتزوج فتى مراهقا .. لو استطعت أن أقربها في الشهر مرة أن تحمد الله على ذلك .

ـ جيد هذا يا عباس! قرأت أن بعض الفقهاء جعلوا حظا للأنثى في الجماع مرة كل فصل أو أربعة أشهر.

ـ أبحث الفقهاء هذه المسألة يا راضية ؟!

ـ أو ليست من الدين ؟ اسمع هذه القصة التي اطلعت عليها ، وقد سمعتها أكثر من مرة من مرضاي ، يرون "أن القاضي كعب بن سور أحد قضاة المسلمين في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعا ، كان جالساً عند عمر بن الخطاب ، فجاءت امرأة تمدح زوجها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي ، والله إنه ليبيت ليله قائماً (يصلي صلاة قيام الليل) ، ويظل نهاره صائماً (تقصد صيام النفل) ، فلم يفطن عمر لمغزى مدحها وشكواها ، فاستغفر لها ، وأثنى عليها ، واستحيت المرأة وقامت راجعة .

فقال كعب : يا أمير المؤمنين : هلا أعديت المرأة على زوجها ، فلقد أبلغت إليك في الشكوى .

ففطن عمر فقال لكعب : اقض بينهما ، فإنك فهمت من أمرها ما لم أفهم

قال : فإني أرى كأنها امرأة عليها ثلاث نسوة هي رابعتهن ، فأقضي بثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن ، ولها يوم وليلة .

فقال عمر : والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر ، اذهب فأنت قاض على البصرة ، نعم القاضي أنت .

أعجب عباس بقضاء كعب وعقب فقال : لها ليلة من أربع ليال .. جميلة هذه القصة منك يا راضية! .. وهل أطيق ذلك بعد أن كبرت سني ؟!

ضحكت راضية وقالت : أنت تناسبك هذه القصة فاسمعها " جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقالت إن زوجها لا يصيبها فأرسل إلى زوجها فسأله ، فقال كبرت وذهبت قوتي ، فقال له : في كم تصيبها ؟ قال في كل طهر مرة (أي في الشهر الواحد) فقال عمر : اذهبي فإن فيه ما يكفي المرأة .



الخطيبة

لما أتمت راضية حسن قصة حكم عمر لتلك المرأة صمتت أو قل اشتغلت بقضم تفاحة ، وكان عباس مبهورا بما سمع فقال بعد صمت قصير : أنت رائعة يا أم سليم! .. لقد أعدت لي الثقة بهذه القصص اللطيفة .. خشية أن أظلم الإنسانة التي سأرتبط بها من تلك الناحية .. الآن ندخل على لب الموضوع ، هل ترين أني أصلح للزواج أم أني تأخرت وفات القطار ؟ عندما يقترب الإنسان من الستين ليس الأمر هينا يا راضية .. معنى ذلك أنه يقترب من سن الضعف والموت .

ـ لا أعتقد يا عباس أن الزواج مرتبط بسن معينة .. الرجل لا يستغني عن امرأة في حياته وحتى في أواخر عمره ، ربما المرأة تقبل بالحياة أرملة أو مطلقة أكثر من الرجل .. فهي تقبل في العيش بكنف الأبناء أكثر من الرجل .. القضية الأهم هو اختيار المرأة الملائمة له .. لقد عرفت رجلا تجاوز السبعين عندما ترمل ثم زوجه أولاده ؛ لأنه لم يقبل بحياة خادمة معه .. وتزوج امرأة فوق الخمسين بقليل ، وقد عالجتها أكثر من مرة ، وعرفت قصتها هذه ، وبعد حين افتقدتها ، فأخبرت أنها ماتت .. ماتت قبل الرجل العجوز .. الأعمار بيد الله

ـ أكيد أن الأعمار بيد الله .. أنا أريد امرأة تحب الستر والحياة البسيطة وتعلم من تزوجت .

ـ اسمع عندما حدثني الأخ يوسف عن زواجك اقترحت عليه أن نعرض عليك أرملة أخت عيسى زوجي وقريبتنا أيضا ، فهي قريبة من الثلاثين سنة ، ويمكن أن تحمل إذا لك نصيب في الذرية ، وثانيا هي أرملة وعندها طفلان ولد ابن اثني عشرة سنة وأخته تصغره بعامين يعني لها سنوات لم تخلف لعدم رغبة زوجها المتوفى بذلك .. وهي تعرفك حق المعرفة ، ووالدها وأمها يعرفانك .. وتحدثت مع عيسى ليلة أمس فلم يعترض .. ففكر فيها ؛ فإذا وافقت على الارتباط بها فسأتكلم معها ، فهي أرملة منذ سنتين قد تزيد شهور

ـ إني لا أذكر شكلها .

ـ أتحب مشاهدتها ؟

ـ لا بأس .

ـ حسن هذا ، سأدعوك للعشاء عندي يوم الجمعة القادم ، وأدعوها مع آل عمي سليم

بعد صمت قد طال قليلا قال : أنت ترينها مناسبة لرجل عجوز مثلي .. أليست صغيرة ؟ .. بيننا ثلاثون سنة .

ـ المرأة البالغة بنت العشرين كابنة الخمسين ما دامت تحيض .

ـ خبيرة في النساء!

قالت باسمة : الحياة تجارب يا أخي .

قال : نعم الحياة تجارب كما قلت .

ـ ومن خلال الالتقاء بالمرضى والصديقات نطلع على قصصهم وتجاربهم وهم يحبون نصحهم خاصة إذا وثقوا بك .

ـ كما قلت خبيرة في النساء!

ـ اسمع قال صلى الله عليه وسلم [فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها] * فهذا نص كلام النبي صلى الله عليه وسلم .. ما دامت امرأة صغيرة كبيرة كله من ناحية الجماع سيان .

---

* عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ فَقَضَى حَاجَتَهُ وَخَرَجَ وَقَالَ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا قَالَ أَبُو عِيسَى حَدِيثُ جَابِرٍ حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ (ت) *عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّهُ يُضْمِرُ مَا فِي نَفْسِهِ(د)

ـ أنا ازداد بك إعجابا يا راضية.. تحسنين الإقناع .. وهذا كلام عظيم من الرسول صلى الله عليه وسلم .. إذاً علينا رؤية شقيقة عيسى لنتابع المشوار .. أهي راغبة بالزواج ؟

ـ هي مترددة قليلا ؛ لأنني حدثتها بذلك الأمر قديما لزميل لنا في المجمع الطبي .. ربما لأن وفاة زوجها كانت حديثة سنة أو أقل بشهر ..

ـ على كل حال إن قبلت بي .. لا تضغطي عليها يا راضية .. أنا أريد حياة زوجية هادئة ؛ كأنني لم أتزوج .

ابتسمت ابتسامة تشجيع وقالت : ستجد ما يسرك منها .. فأنا أعرف آل عمي حق المعرفة ، لا أذكر أنني تشاجرت مع عيسى مشاجرة يمكن أن تسميها مشاجرة ، فهو يحب الاختصار .. ورغم مرض زوجها في آخر سني عمره كانت راضية بنصيبها وصابرة ، والدليل على ذلك أيضا أنها لم تضغط عليه حسب حدود معرفتي من أجل المزيد من المواليد .. وأنا أراها مناسبة لسنك ، ولعدم خبرتك في النساء وهمومهن .. وهذا كله في علم الغيب ، وأرجو أن تقبل ، وإذا لم تقبل سأجد لك غيرها إن شاء الله تعالى

ـ سلمت أمري لك في هذه القضية المصيرية ، وأدعو الله أن يوفق ويسهل أمر هذا الزواج .. وأشكرك يا أخت راضية وآسف جدا لإزعاجك .

وانتقل الحديث إلى أخبار أولادها وزوجاتهم وحياتهم ومدارسهم وجامعاتهم ، فراضية ولدت ثمانية من المواليد .

بعد مغادرة راضية بيته شرب المزيد من القهوة ، وهو يقلب محطات التلفزيون الفضائية التي بدأت تنتشر وتزداد في أواخر تسعينيات القرن العشرين ، ولما لم يجد فيها شيئا مهما ـ فأكثرها تبث الأفلام الأجنبية القديمة والأغاني العتيقة وحوارات عقيمة ـ انتقل إلى غرفة المكتبة التي أقامها داخل الفيلا ، وكان قد تعاقد مع أكثر من دار نشر ومكتبات تجارية لتزوده بجديد المصنفات ، فكان بريده يحفل بمراسلات المكتبات وجديد الكتب ، وكان الخادم الآسيوي

يذهب لتلك المكتبات في أواخر كل شهر مرة لجلبها من تلك المكتبات التجارية ، ومع الزمن كبرت مكتبته أي كثرت موجوداتها من الكتب .

كانت بعض الكتب منتشرة على طاولات المكتبة ، فقد كان قد طلب من الخادم بألا يعيدها لمكانها في الرفوف .

قضى ساعات من الليل يقلب في بعض الكتب التي يقرأ فيها تلك الأيام ، وتصفح بعض المجلات العلمية التي يتابعها ، ومع أن القراءة هوايته الدائمة والمصاحبة له من عهد الطفولة ظل الفكر مشغولا بمشروع الزواج ، وكان بين الفينة والتي تليها يحدث نفسه سائلا " هل يستمر في أمر الزواج ؟ أم يستنكف عنه ؟ "

ثم يتذكر ابن عمه يوسف القريب من سنه وزواجه ثانية وزوجته الشابة سعيدة معه رغم فارق السن بينهما .. كان هاجس الخوف والقلق من الحياة الزوجية بعدما كبر سنه يؤرقه .. ثم تذكر الأرملة التي تسعى راضية للجمع بينهما والأولاد ، فيقول بعد عصف فكري " هل سأرتاح لوجودهم معي في البيت ؟ لم أعتد على الحياة مع الأطفال .. أنا كنت أحب أطفال مريم وأداعبهم وأعانقهم عند أمهم وأبيهم .. كنت أحيانا أسمح لهم بالمبيت هنا عندما كانوا يأتون من السعودية في إجازة .. سأضيف عبئا إضافيا لمارتن ودميانا .. أخشى أن أحطم قلب هذه الأرملة وأطلقها إذا ضقت ذرعا من الزواج .. أو لم ترتاح لي ..ولكنها شقيقة عيسى زوج راضية ستتحملني بحكم القرابة والمصاهرة .. ووالدها رجل فاضل أني أتذكره ، وهو مهندس بترول متقاعد ، لقد عالجته مرة في المشفى العسكري ، بل أذكر زوجته السيدة الفاضلة حليمة محمد .. أنا أذكرهم جيدا كانت تقول لي كلما نلتقي " قلبي معك يا عباس أنت أخ طيب لي ".. نحن من أبناء جيل واحد إلى حد ما .. ماتت مريم وهي مشفقة عليّ .. إنها تخشى أن أموت ولا ذرية لي .. اليوم يا مريم دور العناية بالكبار موجودة وشائعة ومقبولة من الناس .. كان الناس قبل عقود ينفرون من إبقاء الميت في ثلاجة الموتى ، ويعتبر الأبناء هذا

من العقوق .. أما اليوم فهو عرف مقبول .. لأن هذه الدور تخدم هؤلاء الكبار نفسيا وصحيا اليوم الأبناء في الوظائف والعمل .. المرأة تعمل والزوج يعمل .. فها هي من تزعم أنها أمي لولا هذه الأماكن ماذا سأفعل لها في البيت ؟ .. سأزهقها من شهر من شهرين من سنة .. هل سأترك العمل للبقاء عندها ؟ كيف كان يعيش الأوائل ؟ .. إنهم سكان أرياف .. فالأقارب كلهم حول بعض البعض ، هذا يرعى هذا ، وهذا يرعى هذه .. وشغلهم حول البيوت .. حياة المدن غير حياة الريف والقرى .. هل إذا هرمت سأنتظر من ابني أن يبقى بجواري ويترك وظيفته ؟ .. الدنيا تتغير .. نعم الدنيا تتغير .



رتبت راضية وزوجها وليمة طعام لحميها وأخت عيسى السيدة نبيلة وأطفالها ، وشاركهم عباس تلك الدعوة ، ولما قضي الأكل انتقلوا لصالة البيت حيث قدمت لهم خادمة راضية أكواب الشاي ، وجلس عباس مجاورا للمهندس المتقاعد سليم ، ودار بينهم حديث مقتضب حول السياسة والأحداث العالمية ، ثم تحدثوا عن أخبار الطب والأجهزة الطبيبة التي طورت الطب من أجهزة التصوير الطبقي والرنين المغناطيسي وأدوات الجراحة الليزرية ، وكانت راضية مندمجة في الحديث مع حماتها وبنت حميها ، وكان زوجها عيسى يلتزم الصمت ، وأحيانا يعقب بملاحظة على كلام أبيه هنا ، وتارة على كلام أمه هناك ، وأما الأطفال فقد انصرفوا للجلوس مع بعضهم في غرف أخرى .

وبعد ساعة قضاها عباس معهم استأذن بالانصراف لزيارة ليلية أخرى ، فسلم وغادر ، ولما عادت راضية وعيسى من مرافقته لباب الفيلا الداخلي قال والد زوجها : كيف حالك يا أم سليم ؟ كيف أنت وعباس ؟

ضحكت راضية وقالت : أولا طمني على صحتك وصحة العمة ، سمعت أنك كنت عند الطبيب اليوم !

ابتسم السيد سليم لكنته : شكرا أم سليم ، أصبحت متعبا ولم استطع تناول الفطور ..فأخذني نافز إلى الدكتور خيري طبيب العائلة ، وعلل خيري ذلك بالبرد ، وأسمع عنه كثيرا ، ولا أعرف ماذا تقصدون وتعنون بالبرد ؟

ـ سلامتك يا عمي الفاضل ، عندما تتعرض الأجسام للجو البارد الطقس البارد يصيبها تعب فالجو يؤثر على الجسم ؛ لذلك نلبس في الشتاء الملابس السميكة الدافئة ، والطعام الذي يكون في جوف البطن كالمعدة والأمعاء يتأثر بحرارة الجو من برودة وحر ، وهناك أناس أجسامهم محصنة ضد البرد لا يتأثرون بسهولة .. لكن البرد يسبب الكثير من الأوجاع للبدن ، وكذلك الحر الشديد ، وبالجملة الامتناع عن الأكل لساعات يعيد التوازن للجسم ، وربما إذا أخرج الإنسان ما في بطنه ارتاح يقال "برد الصيف أحد من السيف"

ـ بارك الله فيك يعني البرد هو البرد

ـ نعم ، لذلك يستحسن للإنسان ألا ينام إلا وقد غطى بطنه وصدره .. والإنسان يمكنه أن ينام بغير غطاء ، لكن لأن الليل أبرد من النهار لاختفاء الشمس ، فالثياب والأغطية تعطي الجسم الحرارة والدفء وحتى عادة يعالج المصاب بالبرد بالتدفئة ورفع درجة حرارة الغرفة والجسم . ❋

❋ إصابةُ البرْد : إصابات ناتجة عن البرد ، التعرض إلى درجات حرارة منخفضة، نتيجة عدم قدره الإنسان على التكيف هناك، إصابات البرد الطرفية وهي تعرض جزء من أجزاء الجسم إلى أصابه البرد ، ، أو إصابات البرد لكامل الجسم ، و قد يحدث أحيانا مزيجا من الاثنين معا ، هذه الإصابات شائعة بين الأشخاص الذي يقضون معظم أوقاتهم خارجا في المناخ البارد مثل الجنود. وتصاب الأنسجة لتعرضها لحرارة منخفضة، وليس بالضرورة منخفضة جداً ، وهناك انخفاض الحرارة الذي يحصل عند المسنين ، ويدوم لبضع ساعات.

ـ لعلي فهمت .. والآن ما مناسبة هذه الدعوة ؟

ـ وهل يكون للدعوة مناسبة ؟

ضحك وقال : خاصة إذا حضرها عباس .. نحن الدعوات قائمة دائما بيننا .

تطلعت راضية في عيني عيسى للحظات فابتسم لها ، فأدركت أنه تحدث بشيء لأهله فردت على عمها فقالت : عباس راغب بالزواج بعد هذا العمر يا عم سليم ، وكما تذكرون ماتت أختي مريم وهي توصي بأن يتزوج عباس .. وكان يماطل بظروف العمل الجوال كما تعلمون فلما عاد وأنهى عقده مع المستشفى الطائر ، ذكره يوسف ابن عمي وزوج مريم ـ رحمها الله ـ ذكره بوصية مريم ورغبتها التي ماتت عليها أن تراه أبا وزوجا ..وأنه أي يوسف ها هو قد تزوج كبيرا .. فطلب منه أن يجد امرأة تقبل به .. وفورا تحدث معي يوسف ونقل لي موافقة عباس على الزواج .. فذكرت له العزيزة نبيلة .. فطلب عباس أن ينظرها ، فكانت هذه الوليمة يا أخت نبيلة .

ضحكت نبيلة وأمها وسليم ، وقالت نبيلة : عيسى لم يستطع كتم الأمر .

فقال سليم : شكرا يا راضية أنت أغلى كنة عندي واسألي أم نافز

ـ وأنت عزيز على قلبي يا عم سليم .. أنا لا أريد الإحراج للغالية نبيلة ..

كان باستطاعتي الحديث مباشرة مع نبيلة ومعكم .. فعباس ما زال مترددا في أمر الزواج والأولاد ، فأبي ـ رحمه الله ـ مات وهو يوصينا جميعنا على عباس ومريم .



خطيبة أخرى

قضى السيد عباس سهرة عند أحد الزملاء وعاد للبيت بعد نصف الليل ، فوجد مارتن الخادم مستيقظا فحياه ، وقال معاتبا له بلطف : ما زلت مستيقظا يا صديقي؟! .. ألم أقل لك إذا بلغت الساعة الحادية عشرة فارقد ، وإذا احتجت خدماتك أرن عليك ..

فتمم الرجل بأنه مرتاح ، ولم ينم بعد ، وكان يتفرج على التلفزيون في حجرته ، فقال عباس : لا بأس ، ما دمت أنت صاحيا .. فاصنع لي الشاي ومعه بعض المكسرات ، فها أنا سألبس ملابس النوم ، وأسهر في المكتبة يا عم مارتن .

هزّ الرجل رأسه بالفهم ، وقبل أن يستدير ناحية المطبخ قال : أخت حضرتكم اتصلت أكثر من مرة .

ـ راضية ؟

ـ أجل .

قال وهو يمشي لحجرة النوم لخلع ملابسه وارتداء ثياب البيت : إنها تريد معرفة رأيي في نبيلة الساعة تقترب من الواحدة وراضية لا تحب السهر حتى تستيقظ على وقت صلاة الفجر وقيام الليل .. أنا محظوظ بأخت طيبة كراضية .. إنها تحترمني وتعرف حق الأخ الكبير ؛ ولكني أنا مسالم ولا أشعرهم بأني الأخ الكبير .. الأم تحتاج لزيارة ..لي أيام لم أزرها، وقد وعدتها أن أزورها في الأسبوع مرة أو مرتين .. واليوم لا عمل .. لا أدري لماذا أبناء الذي تاجرت به لم يزوروها منذ تركت كندا لهم ؟!.. ولكنهم يدفعون في تكاليف العلاج والرعاية .

ولما دخل المكتبة وجد الشاي والفواكه والمكسرات في انتظاره ، فشكر الخادم وطلب منه الذهاب للنوم ، فحنى الخادم رأسه قليلا ، وألقى تحية المساء واختفى .

سكب لنفسه الشاي الأسود ، وأخذ يرشف ويقزقز البزر الأبيض المالح ، والفستق الحلبي المملح أيضا ، ويفكر بقضية الزواج التي تشغله هذه الأيام ، وقد حدثه صديقه الذي سهر

عنده عن امرأة طبيبة عملت معهم قبل سنوات أثناء العمل في طب الجيش ، قد تقبل به عندما استشاره بزواجه المتأخر ، وتذكرها عباس جيدا ، وهي مثله لم تتزوج بعد لظروف معينة ، وقال الصديق : إذا كنت لا ترغب بالذرية فهي مناسبة .. بل صارحه صديقه بمناسبة الحديث أنها طلبت منه يوما ما أن يسعى لدى عباس بالزواج منها ، ولأنه يعرف وجهة نظره حول الزواج ، لم يكاشفه بهذا ، وزعم لها يومئذ أنه رفض وانتهى الأمر .

فقال لنفسه : نبيلة سليم أصغر منها سنا ، وقد تلد مع أنها كما سمعت من راضية لها زمن لم تحمل بناء على رغبة قرينها الذي اكتفى بالولد والبنت .. والدكتورة حسب ما أذكرها أجمل من نبيلة من جهة البشرة ؛ ولكنها قريبة من الخمسين هذه الأيام .. أنا لا أدري لماذا لم تتزوج ؟ فضلت التعليم والشهادات العليا على الزواج والأطفال حتى فاتها القطار كما يقال .

وبينما هو يقارن بين قريبته نبيلة وزميلته القديمة العانس ، رن الهاتف فلما سمع صوتها قال :

أهلا أختي الغالية لم تنامي بعد أم نمت واستيقظت؟

ـ كلاهما .. أنا لما انشغل بموضوع مهم يصيبني القلق حتى انهيه بسلام .. لعلك استمعت بسهرتك .

ـ عرضت عليّ عروسا أخرى .. طبيبة عانس خدمت معي قديما .. ذكرني بها الدكتور مراد عبد الله .. ولكنها قريبة من الخمسين قد لا تلد .

ـ بالتأكيد لن تلد ، هذه يا أخي انقطع الطمث عنها من سنوات ، ولو ما زالت تحيض فحملها صعب يا عباس .. فنبيلة هناك أمل كبير أن تلد لك .. إلا إذا كانت القضية قضية زواج فحسب .

ـ وهل أستطيع التربية بعد وصولي لهذه السن ؟

ـ أنت خلّف وأنا أربي لك .. فلي أكثر من خمس أو ست سنوات لم ألد .

لم يعط عباس الموافقة لراضية لتبدأ في ترتيب أمر زواجه من السيدة نبيلة ، طلب منها السماح له

ببضعة أيام أسبوع على أكثر تقدير ، وقد أعلمته أن عيسى كان قد كاشفهم بسبب هذه الدعوة من دون علمها ، وأن القوم ينتظرون قراره الحاسم .

لما زار عباس أمه بعد تلك المحاورات وجدها ما زالت في الحال التي تركها عليها آخر مرة وتحدث مع الطبيب المقيم ، ومع مدير دار الرعاية وقصر الوفاء ، وهو طبيب أيضا متقاعد من وزارة الصحة ، ومع الممرضة القائمة على متابعتها في أغلب الأحيان ، وعلم أن وضعها الطبي مستقر على ما كانت عليه في آخر فحص ، وسيقومون ببعض التحاليل المخبرية للبول والدم ، وستؤخذ لها صورة طبقية للدماغ ، وسيمر عليها طبيب الدماغ والأعصاب بعد التصوير ، وأخبر أن أكلها ضعيف بسبب تعب في الأمعاء .

كانت لا تتكلم ترد عليه بالإشارة خلال الجلسة ، ولما انتهى من متابعة حالتها المرضية ، واقترب موعد المغادرة كاشفها بأمر زواجه ، فلمعت عيناها ببريق خاطف ، وارتسم السرور على وجهها فرحا ، كما بدا لعباس ، ثم قالت بلسان ثقيل : أصحيح ؟

ـ أجل يا أمي، أخيرا سأتزوج بمشيئة الله تعالى .

ـ أسعد خبر سمعته في حياتي ، الآن أحس أنك غفرت لي زواجي من بلال .

ـ الأمر لله يا أم داود .

تقدمت الممرضة القائمة عليها تلك الوردية وأعطتها إبرة تخدير لتنام ،

فسلم عليها عباس ، ولما أغمضت عيناها غادر الحجرة ، ثم نزل لموقف السيارات الخاص بدار الرعاية ، وركب سيارته ، وكان الوقت يقترب من الغروب ووقت صلاة المغرب ، بل أذّن وهو ينطلق في الطريق ، فلما اقترب من أحد المساجد القابعة على طرف الشارع نزل إليه لأداء صلاة الجماعة .

ذهب بعد الصلاة للعشاء في أحد مطاعم المدينة ، وكان على موعد لحضور محاضرة مسائية في أحد الفنادق عن الدماغ لدكتور عالمي من ألمانيا ، وقد تلقى عنده بعض المحاضرات أثناء

دراسته لتخصص الدماغ وأمراضه في المانيا ، وكان موعد المحاضرة العلمية التاسعة والنصف بترتيب من جمعية الأعصاب والدماغ .

ورحب به مدير الجمعية وهو يستقبله على مدخل القاعة ، وفي التاسعة والنصف بدأ الطبيب المحاضر محاضرته ، وكان الرجل شيخا هرما ؛ ولكنه بدا نشيطا وواعيا لما يتكلم ويتحدث عنه ، وقضى عباس أكثر من ساعتين بين سماع ونقاش بين المحاضر والجمهور العلمي ، وقد رأى عباس الكثير من أطباء الدماغ يستمعون للمحاضرة .

ولما وصل البيت صلى العشاء، وكان قد اتصل من الفندق بمارتن ، وطلب منه وضع ترمس شاي وفاكهة ومكسرات في المكتبة وليرقد ، فلما قضى الصلاة ذهب حيث حجرة المكتبة ، وقبل أن يبدأ بمراجعة أحد الأبحاث العلمية رن الهاتف فأدرك أنها راضية ؛ لأنه من النادر أن يتصل به أحد في مثل هذا الوقت ، فرحب بها وسمعها تقول : سمعت من مارتن أنك ذهبت لزيارة الأم الغالية.

ضحك عباس لكلمة غالية ؛ لأنها تعلم برودة العلاقة العاطفية بينه وبين أمه وقال : نعم ، قال لي مارتن أنك اتصلت ـ وكان ذلك عندما تحدثت معه من الفندق ـ إنها بخير ، ووضعها على ما كانت عليه من أيام ، لم تعد تأكل بشكل جيد ، وهذا طبيا مزعج .. وأنت كيف أمك ؟

ـ تحسنت صحتها بعد تلك الوقعة .. وغدا أو بعد غد ستخرج من المستشفى .

ـ سلامتها يا راضية ، سأزورها غدا ما رأيك أن نتقابل عندها ونتغدى سوية لنتكلم بموضوع نبيلة ؟

ـ هل عزمت أمرك ؟

ـ إلى حد ما .. غدا بعون الله نتكلم بالتفصيل .

ـ أقول مبارك يا عم عباس .

ـ قلت المرأة عرفت أننا تغدينا عندك لرؤيتها

ـ عيسى سليم كشف الأمر

ـ أترين أن لها شروطا معينة ؟

ـ هي لم توافق بعد إلا إذا كان السكوت علامة القبول .

لما انتهت زيارة أم فضل زوجة أبيه حسن أخذ عباس أخته راضية إلى أحد المطاعم التي يرتادها منذ عهد بعيد ، وفي صالة خاصة للأسر تناولوا الغداء كل حسب رغبته، ولما بدأ الأكل قالت راضية : أنت تعودت على أكل المطاعم منذ شببت يا عباس .. ماذا ستفعل بعد الزواج ؟ هل ستعود لطعام وطهي البيت ؟

ـ الطباخ موجود مارتن .. وهذا يعود لأم غسان .. أهي ماهرة في الطهي ؟

ـ كغيرها من النساء ليست متميزة حسب معرفتي بها .. أغلب وجباتهم صناعة بيتية ، لم يكن زوجها يحب أكل الأسواق ، وإنما يأكله في المناسبات والدعوات ..

ـ على كل سنجرب ذلك ، فإذا وجدناه أحسن من الأكل الخارجي سيقوم مارتن بالتعاون معها باختيار الأصناف .. على كل حال أنا موافق يا راضية على إتمام الزواج من أخت زوجك المهندس عيسى .. فانظري رأيها ورأي أطفالها أيضا ورأي والديها .

ـ العم سليم والعمة أم نافز لا اعتراض لديهم ، بل قدموا لي الشكر والثناء يوم الغداء ذاك .. فانكشف الطابق بعد مغادرتك ..فاكتشفت فورا أن عيسى صارحهم بسبب هذا الغداء والدعوة .. عيسى صريح يا عباس .. فلما سألوه عن المدعوين قال : عباس فقط فاستغرب الحاج سليم ، وقال : ولماذا عباس فقط ؟ فأخوة راضية كثر؟ فاضطر المسكين للإفصاح بالسبب .

ـ حسب معرفتي البسيطة بالدين فالنظر من أجل الخطبة والزواج مشروع ومباح

ـ أكيد هذا الأمر مشروع فعلا حتى ولو لم يقع زواج ، ورد عن الحبيب صلى الله عليه وسلم ـ وقبل أن تذكر الحديث مسحت فمها وشربت قليلا من الماء وتابعت :ـ " إذا خطب أحدكم

المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل " وهناك حديث آخر فقال النبي صلى الله عليه و سلم " انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما " .

ـ أنت تحبين حفظ الأحاديث

ضحكت راضية ضحكة قصيرة على بساطة عباس وقالت : احتاج لذلك في المحاضرات التي نقوم بإلقائها في الجمعيات والمحاضرات ، كما تحفظون أنتم أقوال مشاهير الأطباء.. فالنقول ممتعة وترسل بها رسالة واضحة .. اسمع هذه القصة عن النظر إلى المخطوبة

مسح عباس فمه وقد كف عن الأكل ، فهزت رأسها تسأله فقال : شبعت الحمد لله .. هات القصة

توقفت هي الأخرى وقالت : الحمد لله الذي أطعمانا هذا ورزقنيه من غير حول ولا قوة .. أشكرك يا عباس .. أنت نعم الأخ والصديق .

ـ لا شكر على واجب ..

ـ القصة يا سيدي العزيز " أن عمر خطب إلى علي ابنته أم كلثوم فذكر له صغرها ، فقال علي : أبعث بها إليك فإن رضيت فهي امرأتك فأرسل بها إليه فكشف عن ساقها فقالت : لولا أنك أمير المؤمنين لصككت عينك ، وقبلها عمر وتزوجها ، وولدت له على ما أتذكر .

قال مندهشا : دائما رائعة يا أخت عباس ! .. كان والدنا حسن شغوفا بقراءة كتب الأحاديث والسنة .

ـ بل كان يحفظ كتاب رياض الصالحين عن ظهر قلب ، ولما صرت أحسن القراءة كان يسمح لي باستظهار حفظه .. إذن نكمل المشوار .. الليلة بعون المولى سأتحدث مع عمي وعمتي وهم يكلمون نبيلة .. وحسب الجو أرى أن نبيلة لا اعتراض لديها ، قلت لزمت الصمت يوم الغداء ذلك .. ولها سنتان أرملة .. والعلاقة الزوجية تنتهي بانتهاء العدة بين الأرملة والمتوفى ولا أعتقد أن أحدا من إخوتها سيعترض على الدكتور عباس بن حسن حفيد الحاج عزام ..

أقلت لأمك ؟

ـ نعم، ورأيت السرور في وجهها وعينيها ، وقالت : الآن أرى أنك غفرت لي زواجي من المذكور .

ـ مسكينة أمك، للأسف رجعت إلينا وهي مريضة لا حول لها ولا قوة ..

لما غادرت راضية المطعم ذهبت لبيت حميها لقضاء المهمة ، فكانت الفتاة في عجلة من أمرها فهي تريد أن تكسب الوقت أو تسابق الزمان كما يقولون ، فقد مات والدها وكله شوق وحسرة ليتزوج عباس ابنه البكر ، كان كلما يتزوج أحد أبنائه ، يقضي ساعات مع نفسه في البكاء من أجل عباس .. وهذا كله واعية له راضية ، فهي ترتيبها الثالثة من أبناء أمها فائزة ، وماتت مريم وكانت تتمنى أن ترى لعباس بيتا وزوجة وأسرة ، والكثير من أفراد العائلة رغبوا له ذلك ، قرعت الجرس وفتح أحد أبناء نافز فهو بكر عمها ، وهو ظل منذ تزوج ببيت الأسرة مع والديه ، قدم لها الشاب الصغير خده فقبلته وقالت : أين جدك وجدتك ؟

سمع أمه تصيح : من يا حمزة ؟

ـ امرأة عمي عيسى أم سليم .

خرجت أم حمزة ترحب براضية وتصافحها وقالت : أين عيسى والأولاد ؟

ـ جئت وحدي ، عساك بخير .. كيف نافز أبو صلاح ؟

قالت: كلنا بخير ، كيف أولادك جميعهم ؟ كيف أمك نسيت أن أسألك عنها ؟

ـ الحمد لله ، ربما تخرج غدا تحسنت كثيرا .. الكبار يكبرون ،وتضعف عظامهم ، وهشاشة العظام مرض شائع بسب بلوغ الناس سنا كان يصعب الوصول إليها إلا بأمر الله .. المداواة والطب بعد تقادير الله رفعت من سن الشيخوخة .

ـ إن شاء الله ربنا يشفيها ويخفف عنها الألم .. أمس ذهبت مع أسرة عمي لزيارتها .

ـ شكرا لكم .. العم والعمة موجودان ؟

ـ عمي مشى للجامع لأنه أذن المغرب قبل قليل .. تفضلي، أكيد عمتي تصلي وإلا خرجت ترحب بك .. فعمتي تحبك ـ كما تعلمين ـ حبا معروفا في العائلة .

ـ شعور متبادل يا أم صلاح ..

تقدمتها أم صلاح لشقة عمها وعمتها ، وفعلا كانت العمة تجلس على سجادة الصلاة تتابع فرضها ، فهي تصلي جالسة خاصة النافلة .

جلسن ينتظرن إنهاء صلاتها ويتحدثن بحديث هامس ، ولما سلمت أم نافز قامت لترحب براضية التي عانقتها ومقبلة ليدها ، فهي منذ أصبحت حماتها وهي تقبل يدها كلما تتقابلان وتدعوان لبعض ، ولما جلسن ثانية قالت أم صلاح وهي تقف : ما تحبين أن تشربي في مثل هذا الجو البارد مع أنه شهر الربيع

ـ نفس الشتاء ما زال فيه .. راضية مغرمة بالشاي مثل حبيبها عباس

ضحكت راضية : أجل يا امرأة عمي .. وأنا كنت قبل قليل أتغدى مع عباس ..

وقصت قصة زيارتها للمشفى حيث الأم ترقد ، ثم الغداء وختمت الكلام قائلة: " وأنا جئت إليكم هذا المساء أو الليل من أجل عباس "

ـ يا مرحبا بك .. أتريدين الكلام مع أبي نافز ؟

ـ الأفضل يا عمتي .. أيتأخر في بيت الله عزّ وجل ؟

ـ عادة يصلي المغرب ويبقى في المسجد حتى يصلي العشاء.. يتسلى مع الجيران والأقارب خاصة أخوه الأكبر منه محمد من رواد المسجد ..

جاءت أم صلاح بالشاي ، وببعض الكعك ، وقبل أن تجلس طلبت منها حماتها أن ترسل ابنها حمزة للمسجد ويقول لجده سليم " أم سليم في انتظاره "

سكبت أم صلاح الشاي وقدمته لحماتها وأم سليم ، وخرجت لتكلف ابنها الشاب بالمهمة ، وعادت للجلوس معهم ، وكان جل حديثهم حول عباس وأم عباس ، وعاد الصبي مخبرا أن

جده في الطريق ، وذهب ليدرس أو يشاهد التلفزيون ، وتابعت النسوة أحاديثهن عن المرض والصحة حتى دخل الحاج سليم ، فقامت راضية تسلم عليه وتقبل يده كما فعلت مع حماتها ، ولما انتهى الترحيب قال : لماذا تجلسن هنا ؟

ثم انتقلوا لصالون شقة الحاج سليم ، ولما جلسوا عاد الترحيب من جديد ، وذكر لها الحاج أن ابنها عبد السلام كان عندهم اليوم، ثم وضح لها سبب مجيئه .

قالت راضية بعد ذلك : قبل أن يؤذن للعشاء يا عمي كنت العصر مع عباس وتحدثنا في موضوع الزواج موضوع زواجه ، وباختصار الرجل بعد تفكير قد قبل الزواج من الأخت نبيلة ، وهي تعلم بظروفه وقصة حياته ، وطلب مني أن أعلن لكم ذلك ، وأن تشاوروا الأخت نبيلة بموافقة الدكتور العزيز على قلوبنا عباس على الاقتران بها .. وأنا حقيقة من محبتي لكم اخترتها لأخي الغالي عليّ ، كما تعلمون فعباس وصية أبي حسن رحمه الله تعالى .. ولتأخذ نبيلة وقتها وحريتها في القبول أو الرفض .. هذا زواج ، وحياة قد تكون صعبة مع رجل لم يعاشر النساء إلا في العمل والوظيفة .. فسيكون مضعضعا حتى يتكيف مع الحياة الأسرية وعباس معروف لكم .

أثنى الرجل وامرأته على همتها وأخلاقها ، وأثنوا على عباس الثناء الطيب ، وقال سليم : قومي يا أم نافز البسي لنذهب للبنت ومعنا راضية ، ونعرض عليها الأمر أمام ابنتا راضية .. فهي التي ستتزوج عباسا ولسن نحن .. فبينهم كما تعلمين يا راضية فارقا كبيرا في السن.. والأعمار بيد الله .. وحسب معلوماتي أن صحة عباس ممتازة ، ولم أسمع أنه يعاني من مرض أو سقم خطير .. هذه حياتها الجديدة ستكون .

خرجت أم نافز لغرفة نومها لتلبس ملابس الخروج ، واتصل سليم بابنته معلنا لها بزيارتهم ، وفي سيارة راضية انطلقوا إلى بيت السيدة نبيلة سليم

كانت نبيلة منذ ترملت تسكن في الشقة المستأجرة منذ حياة زوجها ، وكان والد زوجها هو الذي يدفع إيجارها بدلا عن ابنه الميت ، وذلك من الأموال التي ورثها عن ابنه الميت ، ومن أجل الإنفاق على الطفلين .

رحبت السيدة بوالديها واحتضنت راضية زوجة شقيقها عيسى ، ورحبت بها أحر ترحيب ، وقبل أن يبدأ الحديث ارتفع صوت الآذان في الحي . فقال السيد سليم : لابد من الصلاة .. وغادرهم لمسجد الحي .. وقالت نبيلة لابنها: ماذا قال لك المطعم ؟

احتجت راضية وقالت : قبل قليل أكلت مع عباس في مطعم { الوزة البيضاء } ، وخرجت من المطعم لبيت عمي سليم مباشرة .

ـ نحن لم نتعش يا أم سليم .. نتعشى عادة بعد صلاة العشاء

فقال الولد : قال لي مدير المطعم عند الصلاة ستكون سيارتنا أمام البيت ، وكأنني أسمع زامورها ..

وأسرع إلى الشارع ، وتبعه سليم ذاهبا إلى المسجد ، ادخل عمال المطعم الطعام وانصرفوا ، وقامت النساء للصلاة ، فقد صلت راضية المغرب قبل مغادرة بيت عمها .

وكانت نبيلة تعلم سبب هذه الزيارة ، واطمأنت على أم راضية وعن صحتها ، ولما حضر السيد سليم انتقلوا إلى غرفة المعيشة وأكلوا ما قسم الله لهم ، وعندما فرغوا منه حمدوا الله وشكروه ، وهم يشربون الشاي قال سليم : أنت تعلمين يا نبيلة برغبة عباس بالزواج منك ، وهو من جيل أبيك يا نبيلة ، وهو لم يسبق له الزواج كما تعلمين لأسباب خاصة به ، واليوم غير رأيه أو رضخ لوصية مريم ـ رحمها الله ـ وهو معروف لك ، وشقيق راضية زوجة أخيك وابنتنا راضية رأت أنك مناسبة له لأسباب بينتها لي أولا أنك أرملة ، والرجل لا فرق عنده بين أرملة ومطلقة وعذراء لأنه ليس بالشاب الصغير .. وثانيا أنك أم ولك أولاد وهناك احتمال أن تلدي منه واحتمال ألا يتحقق ذلك .. لن تحتاجي لأولاد إن عجز عن تحقيق ذلك ..

وثالثا هو لا يمانع بحياة الأولاد معك إلا إذا أهلهم رغبوا بهم .. ورابعا الزواج سترة والحزن لا يدوم والحياة ستمضي ، والعفة كنز من كنوز الدنيا .. وأنا وأمك لا اعتراض لدينا على هذا الزواج ، والأعمار بيد الله .. فالرجل يقترب من الستين مثلي .. وعباس معروف بهدوئه وصمته ، وهو صورة عن أبيه حسن عليه الرحمة من الله .. ففكري في حياتك جيدا .. ولابد أنك منذ تلك الدعوة عند عيسى وراضية تفكرين .. والأمر بين يديك .

قالت نبيلة : وهاهم أبنائي يسمعون ، وعندهم فكرة عن هذا الزواج .

قالت راضية : فكروا كما قال عمي وتشاوري مع الأولاد بكل حرية

قالت نبيلة : حقيقة أنا تحدثت مع أولادي وهاهم يسمعون ، والفتى لم يرفض ، والبنت لم تحسم أمرها ، فهي مترددة .. والآن صار الموضوع بشكل جدي ، وأنا الأخ عباس أعرفه جيدا ولا أعتقد أن السن يعيق الحياة الزوجية يا راضية

ردت راضية : صحة عباس الحمد لله معروفة ، وهو يهتم بذلك ، ولكن الزمن له دوره يا نبيلة يمرض كما يمرض الناس من أنفلونزا رشح صداع .. حسب علمي وأنا طبيبة أسنان لم يخلع إلا سنا واحدة .. وهو يحب الرياضة ، وله عضوية في النادي الخاص بالضباط ، ولا يدخن ، والكحول لم يعرف طريقها ، هو كما قال عمي سليم ابن أبيه .. ولا أعتقد أن يقف أولادك في طريق سعادتك .. والزواج فرصة جيدة لك يا نبيلة .. وهؤلاء الأبطال سيتزوجون لما يكبروا وكلما كبرت المرأة قلّت الفرص أليس كذلك يا عم سليم ؟

ـ هذا أكيد يا أم سليم .. لذلك بدأت العنوسة تشكل خطرا في المجتمعات الإسلامية والعربية فقد ارتفع سن الزواج بسبب التعليم وبسبب العزوف عن الحياة الزوجية .

ـ الآن حان وقت الانصراف يا عمي ويا عمتي ، لقد نقلنا رسالة الموافقة من عباس للأخت الفاضلة نبيلة

ـ شكرا لك يا ابنتي العزيزة .. سأتصل بنافز ليمر علينا ، ويتحدث مع أخته في هذا الأمر

ونعود معه للبيت .



مضى يومان قبل أن يصل الرد إلى راضية لذلك قالت لزوجها : هل من شيء يا عيسى لتتأخر أختك في الرد ؟

بعد تردد معروف في شخصيته قال : أنا على اتصال بأبي وأمي حتى أثناء العمل .. وأولاد نبيلة الولد يقول لها : " افعلي المناسب يا أمي ، والبنت ترفض زواجها ثانية "

ـ البنت عاطفية هذا شيء شائع ومفهوم

ـ نبيلة لها رغبة بالزواج .. إنما هي مترددة لسن عباس .. فهو من جيل الوالد .. تخشى أن تترمل ثانية

قالت راضية : قد تموت قبله .. لو فكر الناس بهذه الطريقة لما تزوج أحد يا عيسى .. هناك أناس مرضى بمعنى مرضى أي مرض دائم ويتزوجون ، ولو فكرنا بطريقة السنين لما تزوجت أنثى إلا من يوازيها بالسن .. هناك من يحبذون أن يكون فارق بين الزوجين على الأقل عقد من السنين .

ـ اقترحت عليها أمي أن يكتب لها عباس شقة باسمها لعلها تتشجع على الزواج .

قالت : رغم عدم اقتناعي بهذا الاقتراح يا عيسى سأنقله لعباس .. فلو مات عباس قبلها سترث الكثير من ماله ، بل ربما ترث قصره كله .

ـ هم يخشون الطلاق .. وليس الموت ، فالموت أمره لله .. الخوف من عدم انسجام عباس معها فيطلقها .

ـ هذا وارد لا أنكره يا عيسى .. قد لا يرتاح أخي مع الحياة الزوجية فيضطر للطلاق .. وأنا

من أجل ذلك سأنقل له رغبة نبيلة بأن تكون شقة باسمها لأنها بمجرد خروجها من شقتها سيسلمها أهل زوجها الميت لصاحبها .. هل هذا شرط أختك نبيلة الوحيد أم هناك أشياء أخرى يا أبا سليم ؟

قال : هذا كلام أمي لتشجعها على الزواج منه وتحسم التردد .. سأتحدث معها أمامك .

واقترب من الهاتف ، وتحدث مع أمه عن موضوع كتابة الشقة باسم نبيلة إذا وافقت على ذلك أغلق الهاتف وهو يقول : ستتحدث أمي معها بصورة جدية .

وبعد ساعة اتصلت به أمه مخبرة له أنه إذا كتبت شقة باسمها ستتزوج من عباس ، رفعت راضية سماعة الهاتف ، واتصلت ببيت عباس ، ولم يكن موجودا في البيت فقالت لمارتن : إذا عاد قبل العاشرة ليلا اتصل على بيتي يا عم مارتن .

تركت السماعة وقالت : ذهب لزيارة أمه ، لقد اتصل به مدير دار رعاية المسنين والمرضى .

العاشرة ليلا اتصل بها عباس ، وبعد التحية والسؤال عن أمه قالت : انتظرنا سنمر عليك أنا وعيسى .

لبست ثياب الخروج ، وكذلك عيسى والذي سبقها إلى سيارته ، وأدار ماتورها منتظرا ، ولما ركبت بجواره قالت : امش وتوكل على الله .

واستغرقت المسافة لبيت عباس نصف ساعة ، وأدخلهم الخادم لصالة الاستقبال حيث كان عباس في انتظارهم والترحيب بهم ، وبعد مجاملات تقليدية وشرب الشاي الذي جهزه الخادم أو أخته قالت راضية : كما تذكر يا عباس أنا تغديت معك قبل أيام ، وأخذت موافقتك على نبيلة ، وسرت لبيت عمي والد عيسى ، وحدثتهم بقبولك للزواج من نبيلة ، ومشينا أنا وعمي وعمتي لشقة نبيلة ، وذكرنا لها قبولك للزواج منها ، وتركنا الأمر والتفكير لها ولأولادها .. وشرحت له رغبتها بأن يشتري لها شقة وتكتب باسمها .

وأخذت هي وعيسى يذكران تبريرات هذا الطلب ، فقال عباس بعد صمتهم : لست بخيلا ؛

ولكني أرى هذا الطلب في غير محله .. حتى لو قررنا الانفصال وفشل الزواج فيمكن فعل ذلك عند الطلاق ، أما فعل ذلك مسبقا فأنا لا أراه صوابا يا عيسى .. الأصل في الزواج أن يقوم ليدوم ، فالطلاق وارد لكنه بحكم الاضطرار .. وإذا مت قبلها يا سيدي فهذه الفيلا ستكون من نصيبها إلا إذا أكرمني الله بذرية منها ، فسيكونون شركاء فيها وفي غيرها .

ودار نقاش هادئ بينهم ختمه عباس قائلا : إذا كانت ترفض الزواج مني أو من غيري فلتكن صريحة وشجاعة .. لا يجوز أن تخجل من راضية أو من أمها وأبيها في شأن خطير .

قال عيسى : هذا الشرط كان من أمي لتشجعها على الإقدام .

رد عباس قائلا : لا داعي للإغراءات والحوافز لتقبل بعباس يا أبا سليم .. أرجو يا راضية أن يصلني الجواب نهار الغد .

وودعهم إلى بوابة الفيلا ، وتمنى لهما السلامة ، وعاد لمكتبته وهو يقول : لا تريد الزواج تقولها بصراحة ، أما أنها تريد أن يظهر الرفض من غيرها لتبرر موقفها أمام راضية أو والديها .. فهذا غلط .

واتصل بمراد عبد الله وسأله عن صاحبتهم الدكتورة جيهان نادر .



زواج عباس

عند صلاة الفجر اتصلت راضية بعباس واعتذرت له عن زواجه من نبيلة فقال : لا عليك يا أخية .. مري عليّ بعد مغادرتك من العيادة ؛ لنذهب لرؤية الطبيبة التي حدثتك عنها سابقا ، فلما فارقتموني ليلة أمس تحدثت مع مراد عبد الله ، فاتصل بها فورا ، وأخذ لي موعدا معها في بيت أهلها .

ـ اعذرني يا عباس عن هذا المشوار لظروفي وللموقف الذي نحن فيه .

ـ الزواج قدر .. أيتضايق حموك من ذهابك معي ؟!

ـ إحراج إلى حد ما .

ـ شكرا إلى اللقاء .

ترك الهاتف وقال : سأتصل بيوسف لعله يذهب معي وزوجته .

قبل يوسف بعدما سمع قصة فشل زواجه من نبيلة الذهاب معه لمقابلة الطبيبة جيهان وأسرتها ، ورحب بهم ، وجرى تعارف بينهم ، وقبلت الدكتورة بالاقتران به ، ووافق والداها على موافقتها ، وتحدد بينهم المشي بالزواج حسب عادات أهل المدينة ؛ ولذلك بعدما عاد عباس للبيت ، وتناول العشاء ، اتصلت به راضية تبارك له الزواج ، فقد أخبرها يوسف بما اتفق عليه ، فشكرها عباس على جهدها معه .

وخلال أسبوع واحد جرت مراسيم الزواج الشرعية من كتابة العقد الشرعي بين يدي القاضي في إحدى المحاكم الشرعية المختصة بمثل هذه الأمور ، وتحدد موعد الزفاف ، ومكان إقامة الحفل في صالة تابعة لأحد نوادي الجيش ، وطلبت أمه منه أن يسمح لها بحضور هذه الحفلة ، فتشاور مع مدير الدار ، فوعده الرجل أن يعمل على ترتيب نقلها لحضور الحفلة والعودة بها ، فشكره عباس ودفع له أجر هذه الخدمة .

وفي الموعد المحدد للحفل توافد المدعون من طرف الفريقين ، وجرى الحفل حسب ما خطط

له ، وقدمت فرقة موسيقية تابعة للنادي نشاطا خاصا ، وتناول الجميع المطعومات والمشروبات من المثلجات والعصائر ، وقبل نهاية الحفل قدمت سيارة خاصة تابعة لدار الرعاية بأم عباس ، وحملت على عجلة متحركة إلى قاعة الحفل ، وتقدم منها عباس مرحبا وأخذ أقاربه يسلمون عليها ، ويباركون لها بزواج ابنها البكر، وهي تهز رأسها بالشكر بدون كلام ، ثم فعل ذلك أقارب وأهل العروس ، وجاءت العروس في النهاية ، وسلمت عليها وأخذت يدها مقبلة وداعية لها بالسلامة .

ثم عاد المدعوون لكراسيهم ، وعادت الموسيقى تعزف من جديد ، ولما انتهى الوقت المحدد للاحتفال بدأ الناس بالانصراف رويدا رويدا ، ولما انتهى العروسان من توديع ضيوفهم أخبرتهم الممرضة المرافقة للمريضة عن وفاتها ، وهي تدعو لعباس بالبركة والذرية الصالحة ، فنظر عباس لعروسه باسما ، وكذلك نظرت إليه ، وقالت : عظم الله أجرك يا عباس .

ـ شكر الله سعيك .. رحم الله تعالى أمي ابنة جدي الحاج عزام الرحمة الواسعة .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

تقدم أشقاؤه يعزونه في أمه هدى ويترحمون عليها ، فعانقهم وشكرهم وقال باكيا : هذه لحظة عجيبة من الحياة !

قالت راضية : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ }

تمت بحمد لله




قصص وحكايات
الملك
ابنة الراعي

جمال شاهين

